د. مشعل عبد العزيز الفلاحي



القرآن
وصناعة الدهشة

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ



دمشق





تأليف

د. مشعل عبد العزيز الفلاحي




بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام الأتمَّان الأكملان على سيِّد المرسلين سيِّدنا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغرِّ الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

وبعد:

• **لا أعلم مشروعًا توافرت نصوص الوحي للحديث عنه، والإشادة به، وتكريم أهله، وعرضِ مواقفِ الفوز والتكريم التي ينالها أصحابه؛ كمشروعِ حفظِ كتاب الله تعالى**، للدرجة التي جعله الله تعالى من أعظم مشاهد الحياة، وأجلِّ مواقف الفرح في قلبك ومشاعرك، وأعظمُ لك من كلِّ ما تراه في واقعك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ ـ ٥٨].



ولو لم تقرأ في هذا المعنى إلَّا قول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] لكان كافيًا! فكيف إذا قرأت وصف الله تعالى له بأنه الروح والنور: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

• **ولا أعلم في المقابل حاجةً وضرورةً للأمة أفرادًا وجماعات؛ كحاجتها وضرورتها إلى تدبُّر كتاب الله تعالى، والإقبال على فهمه وفقه معانيه**، والمسألة أكبر من حرف يجري في مساحةٍ كهذه، ولن تعرف الفرق إلَّا إذا تصوَّرت حال صحابة رسول الله ﷺ قبل نزول القرآن عليهم، وحالهم بعد النزول! ومن تتبَّع سير القوم أدرك ما يصنع كتاب الله تعالى!..

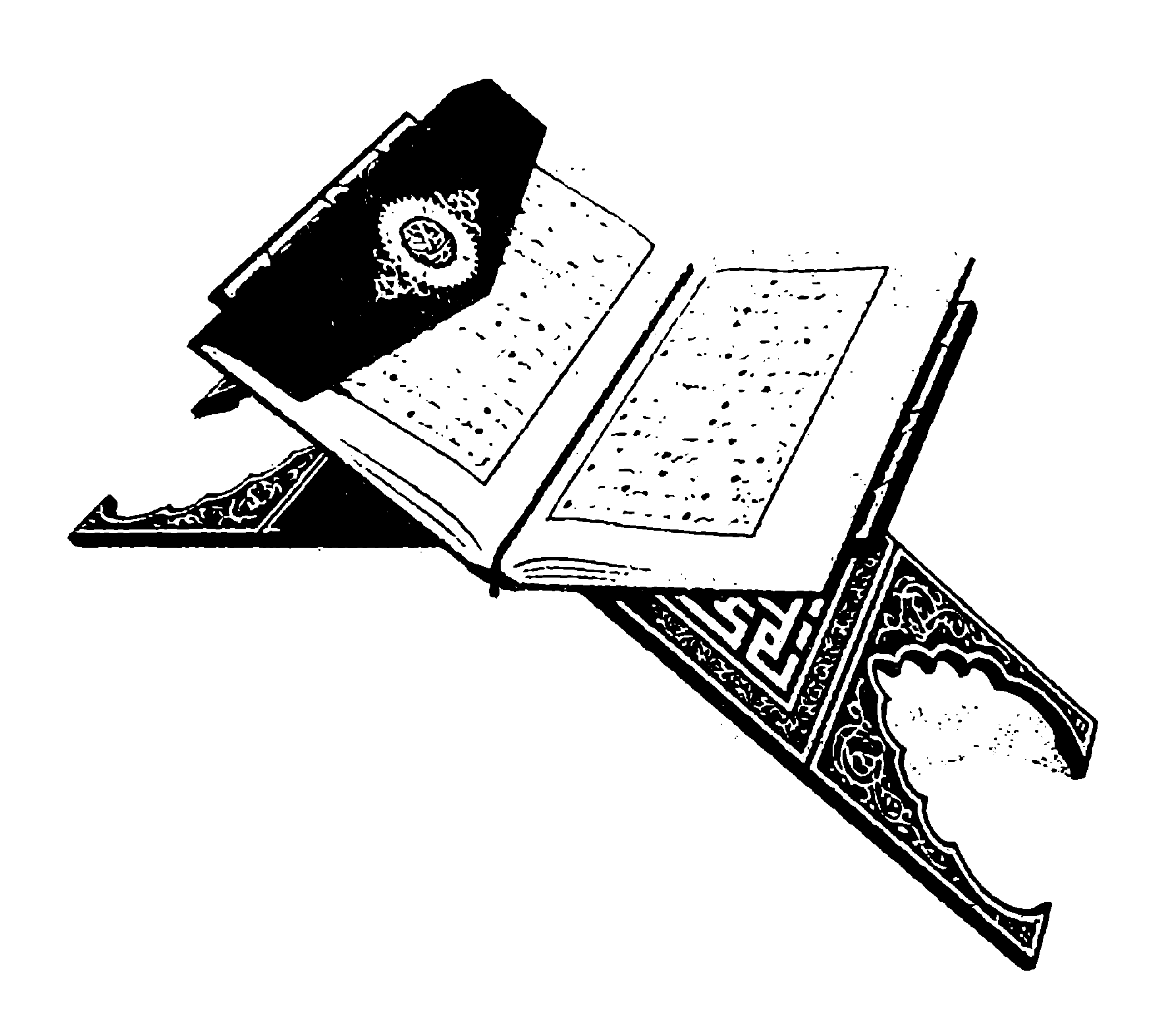
• **إنَّ هذا القرآن لا يمنح المقبلين عليه حسناتٍ كثيرةً وأجورًا مضاعفةً فحسب، ولكنه يُعيد بناءَ شخصية الإنسان**، بدءًا من أفكاره ومفاهيمه، مرورًا بتصوراته، وانتهاءً بتشكيل شخصيته، فترى في

النهاية مخلوقًا ربانيًا صُنِعَ على منهج الله تعالى، من خلال هذا القرآن.

• **ولعلَّ هذا الكتاب محاولة جادة لإبراز بعض ما في القرآن من مباهج**، وقد استعرضْتُ لك كلَّ الآيات التي عرَّفت به، والأحاديث التي صحَّت في شأنه، وحاولت جاهدًا أن أعلِّق عليها، وأُثْرِي مشاهدها، وأبيِّن مباهجها، وعرضتُ لك في المقابل أثرَ القرآن في إسلام كثيرين، وشفاء آخرين، وأبنتُ لك كيف يبني إنسانًا، ويُنْشئ أسرةً، ويُرَتِّبُ مجتمعًا، ويحفظ نظامًا، يشمل كلَّ شيء.

والله المسؤول أن يمدَّ في أثره، ويصنع له الحياة، إنه على كلِّ شيء قدير.

المؤلف





قال الضِّياء المقدسي: أوصاني شيخي فقال: أكْثِرْ من قراءة القرآن، ولا تتركه، فإنه يتيسَّر لك الذي تطلبه على قدر ما تقرأ.

قال الضِّياء: فرأيتُ ذلك، وجربته كثيرًا، فكنتُ إذا قرأتُ كثيرًا تيسَّر لي من سماع الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ لم يتيسَّر لي شيء مثل ما كان.

(ذيل الطَّبقات، لابن رجب)





مشهدٌ للحياة

• **ماذا يعني لك القرآن؟..**

حين تسمع عن إجلال كلام الله تعالى، وإكرامه، والوقوف عند آية من آياته، ماذا يمثِّل لك هذا المعنى؟..

ـ حدِّثْني عن قلبك ومشاعرك، وأنت تسمع عن أثر هذا الوحي في قلوب الكافرين، وهم يعودون للحياة من خلال هذا القرآن..

ـ ماذا لو ذُكرت لك عشرات القصص والمشاهد للمتعافين بكتاب الله تعالى من أمراضهم، بعد أن قيل لهم: إنَّه لا سبيل إلى الشفاء؟!..

ـ قل لي: أمَا رأيتَ شاردًا عن الهداية، ردَّتْه آيةٌ من كتاب الله تعالى، وأعادته للحياة من جديد؟! أما بلغك خبرُ الضَّال الذي سمع آيات من هذا الوحي العظيم، فإذا به يذرف الدمع بعد طول غياب؟!..

ـ كلُّ هـذه المواقف ألـن تجعلك تعـي الدَّليل التطبيقي الذي تراه بعينك، وتُشبع به أذنك، وترى له ألف صورةٍ ومشهد في واقعك؟!

• ولـو أنك فقـط ضربت بإصبعك على شاشـة جوالك، **لخرجت لك ألف صورةٍ ومشهدٍ ومعنًى، عن أثر هذا القرآن في حيـاة العالمين**، فضلًا عن التقصِّي والإمعان!..

• **ولعلي أنقل لك صورة ومشهدًا واحدًا من تلك المشاهد**، اسـتحثُّ به قلبك ومشـاعرك، لقراءة هذا النَّص المتين في سُنَّة نبيك ﷺ.

جاء في «الصحيحين»: أنَّ رجلًا من اليهود جاء إلى عمر رضي الله عنه، فقال لـه: يا أمير المؤمنين، آيـةٌ في كتابكم تقرؤونها، لو علينا نزلتْ معشـرَ اليهـود لاتَّخذنا ذلك اليومَ عيدًا، قال: وأي آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ـ تخيَّل هذا اليهودي، وهو يقرأ موطنًا من مواطن الإجلال في هذا القرآن، ويقف له مُجِلًّا، ويرى أنه لو كانت في كتبهم لجعلوا لها عيدًا!.. يا الله! آيةٌ واحدة،

أنا وإياك قرأناها مئات المرات، ولم تُحَرِّك فينا ساكنًا، فضلًا أن تبعث في عقولنا إعجابًا، أو تجري في قلوبنا وأرواحنا بالفرح والإجلال!.

«آيةٌ في كتابكم تقرؤونها، لو علينا نزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا»، آيةٌ واحدة، لم تستوقفه ليعيد قراءتها، ويتأثر بها ويجعل واقعها في حياته، وإنما ما كان يقنعه منها إلَّا أن يقيم لها احتفالًا يليق بمكانتها، ويصنع مشاهدها، ويمدَّ في أفراحها، ويرسم لها معالم للفرح تتكرر كلَّ عام، ويرى أنَّ ذلك أقل ما يكون لها!.

يا الله، ماذا لو أنَّ هذا اليهودي كان مؤمنًا بهذا القرآن، ومقبلًا على الله تعالى، ومستكثرًا من الخيرات من خلاله، وصادقًا في الطريق إليه! ثمَّ مرَّ بقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]؟!..

ماذا لو قرأ متأمِّلًا قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، وقد أمضَّه التعب والعناء في الطريق إلى الله تعالى؟!..

ـ من فضلك أعدْ قــراءة ما قاله ذلك اليهودي، ارْوِ عطشــك من فيوض هذا المعنى الكبيــر، املأ روحك إجلالًا لكتاب الله تعالى، مــن قارئ لا علاقة له به في شيء، سوى ما ألقتْ في روعه تلك الآية عند أول قراءةٍ لها، «آيةٌ في كتابكم تقرؤونها، لو علينا نزلت معشــر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، قــال: وأي آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]».

ـ ومن هذا الباب قال ذلك المفسِّــر لسائل سأله عن شــروط المفسِّــر، فقال له: أن تملأ قلبه الفرحةُ بالقرآن أولًا، وقبل كلِّ شيء.

ـ ماذا لو أنَّك حين توضأتَ، وتطهَّرْتَ، وأقبلتَ على كتــاب الله تعالى، وأنــت تعرف مــاذا تقرأ! وما يُراد منك أثناء قراءته! وما تصنع بما تقرؤه في النهايات؟..

تخيَّل أنك مرة واحدة من عمرك قد احتفيتَ بهذا القرآن، كاحتفاء هذا اليهــودي بهذه الآية التي مرَّ بها في عرض كتاب الله تعالى!.

ـ إنَّ شيئًا من هذا الاحتفاء بكتاب الله تعالى كافٍ لإغراق مشاعرك بالفرح، ومدِّك بشعور الجلال والتقديس، وهزِّ مشاعرك ألف مرة، وأنت تحظى بلحظةٍ واحدة من عمرك تخاطب ربك، وتستقي من كتابه قيم الحياة.

ـ وما أحوجنا في زماننا هذا إلى شيء من مشاعر هذا اليهودي، وهو يلقى قلبه ومشاعره في آيةٍ واحدة من هذا الوحي، فكيف به كله؟!..





حدَثٌ للتاريخ

• تعال معي في هذه المساحة، لأعرض لك واحدًا من أحداث التاريخ المدهشة.. تعال معي لأقرأ عليك مشهدًا لا يتكرر إلَّا في مشاهد القرآن فحسب!.

ـ دعني أخبرك أنَّ مشــاهد الدَّهشة قليلةٌ جدًّا في واقعك، وأقل مــن ذلك القليلِ المشــهدُ الذي يأخذ بقلبك ومشــاعرك في آنٍ معًا، ويلقــي بك في بحر الحياة من جديد.. ســأنقل لــك حدثًــا نورانيًا ربما تســمعه لأول مــرة، أو ســمعته مــرارًا، ولكنــه لم يستوقفك طويلًا، فكيف بك وأنت تقف على أحداثه، كأنك تراها رأي عين؟!.

ـ مشهدٌ يحدثُ لأول مرة، حدثٌ تنزَّلت فيه ملائكةُ السماء، وأوشــكت أن تكون على الأرض في صبيحةِ ذلك اليوم، وأدركَ حيوانٌ ذلك الحدث، وأوشــك أن يقطعَ رباطــه من أثر ما رأى من أحــداث تلك الليلة،

حتَّى أذنَ الله تعالى لها بالتوقُّف، في لحظةٍ لو بقي صاحبها دقائق، لرأى ما يُدهش مدى العمر!.

• جاء في «صحيح مسلم»، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنَّ أُسَيْدَ بن حُضَيْرٍ كان يقرأ في ليلةٍ من الليالي في مِرْبَدِهِ، فجالت فرسه، فقرأ، ثم جالت أخرى، فقرأ، ثم جالت، قال أسيد: فخشيتُ أن تطأ ابني يحيى، فقمتُ إليها، فإذا مثل الظلة فوق رأسي، فيها أمثال السُّرُج، عرجت في الجو حتَّى ما أراها، قال: فغدوتُ على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي، إذ جالت فرسي، فقال رسول الله ﷺ: «**تِلكَ المَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، ولو قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ ما تَسْتَتِرُ منهمْ**»!.

ـ هل قرأتَ الحديث بوعيٍ؟ عفوًا: إذا لم تكن منحتَه قلبك ومشاعرك، فأعد قراءته مرة ومرتين، وعشر مرات وأكثر، لأنَّك لن تتخيَّل أثرَ القرآن على نفسك حتَّى تدركَ هذا المعنى، الذي يبعثه الحديث في وجدانك هذه اللحظة، وإن شئت فكرِّر مرارًا قوله ﷺ: «**تِلكَ المَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، ولو قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ ما تَسْتَتِرُ منهمْ**».

والذي نفسي بيده! لو أنَّ قلبًا حيًّا قرأ هذا الخبر، لأجهش بالبكاء غبطة وفرحًا!..

يا الله! ملائكة الله تعالى في السـماء تستمع لتالي القرآن في ليلةٍ مـن ليالي العمر، ثم تتنزَّل في الوقت ذاته لسـماع تلاوته، ثم ماذا؟ لو بقي يقرأ لاستمرت في نزولها إلى الأرض، ولأصبحت مشـهدًا مدهشًـا للعالمين!..

ـ هل كنت تتخيَّل في يومٍ من أيام دهرك، أن تتلوَ آيَ القرآن في بيتك، أو في فناء دارك، أو في مسجد حيِّك، أو في أيِّ مسـاحةٍ من الأرض، وتشـعر في الوقت ذاته أنَّ الملائكة تسـتمع لقراءتك، وتستمتع في الوقـت ذاته بمباهـج ذلك المشـهد الجليل في حياتك! دعني أخبرك أنَّ مشـهدًا كهذا يكفي للبهجة مدى العمر.

• **يُحدِّثنا هذا النصُّ عن أثر القرآن في هَدْأَةِ الليل،** وهو يقبل بملائكة السَّـماء تتهادى إلـى نور الوحي وجلاله، وكادت تُصبح على مرأًى من العالمين، على سطح الأرض، فكيف بتالٍ لامَسَ القرآنُ شغافَ قلبه ووجدانه، وجرى في مشاعره، وأخذ حظه من نفسه،

ورزقـه الله تعالى صوتًـا نديًا، وقام به فـي ليلةٍ من الليالي، أو فـي فجر يومٍ من أيـام الله تعالى، أو في لحظةٍ مـن لحظات عمـره، وصنع به ومـن خلاله الحياة؟!..

ـ ماذا لـو أننا كلَّما أمسـكنا بكتـاب الله تعالى، تذكرنا السُّـرج التي تدلت على أُسيد بن حضير رضي الله عنه في تلـك الليلة، فتحرَّكت فرسـه وجالـت لحادث السماء؟!..

ـ ماذا لـو أن كلَّ تالٍ لكتـاب الله تعالى تيقَّن أنَّ المشـهد ذاته، أو بعضه قد يتكرَّر معه، ولتلاوته في يومٍ من أيـام الله تعالى، أو ليلة مـن لياليه؟!.. ليس بالضرورة مشهد السُّـرج، ولكن معناه ودوره، وأثره في صناعة مشاهد الفرق في حياتنا في مستقبل الأيام.



مشاهد من الهداية

• ماذا لو اشتدَّ بكَ المرض ـ عافاك الله تعالى ـ ثم لقيتَ طبيبًا، وكنت تعتقد اعتقــادًا كبيرًا أنه يملك كلَّ أسباب شفائك؟ كيف ستســتقبله؟ بل كيف ستجلس أمامه؟ حَدِّثْني عن إصغائك، وسماعك تلك اللحظات.. قل لي: كيف ستحتفي بما يقول لك من توصيات؟..

صِفْ لي انطباعَك عن العــلاج الذي صرفه لك طبيبُك، من أول ما فارقته حتَّــى نهاية الزمن الذي قرره لك! تخيَّل لو طلــب منك ذلك الطبيب بعض التحاليل الطبية، ثــم عملتها وبعثتها إليه، ثم أبلغك بأنَّ مرضك مرضٌ بســيط، لا يســتحق منك ذلك القلق، وسأصرف لك علاجًا هو كفيلٌ بإذن الله تعالى بشــفائك من مرضك كليًّــا، هل يمكــن أن تصف مشاعرك، وتحدِّثني عن أفراحك، وتحكي لي تلك اللحظات المدهشة في حياتك؟!..



تخيَّل لو أنـــك تُهْتَ في طريقٍ مـــا، وبقيت زمنًا تبحث عن المخرج، ولا ســـبيل لك إلـــى ذلك؛ نفد الماء الذي معــك، وقلَّ زادك، وأجهدت مشـــاعرك، وأوشـــك صبرك على النفاد، ثم إذا بـــك تلقى عارفًا بالمكان في طريقك، هل تستطيع أن تصف لي تلك اللحظة التي أوشـــكْتَ فيها على الهلاك، ثم إذا بك ترى الحياة من جديد؟..

• دعني أقلْ لك: أفراحُك التي حاولت أن تصفها بلقاء ذلك الطبيب، ومشاعرُ الأنس التي غشيتك حين عثرت على من يدلـــك على الطريـــق، لا تقارن مع اللحظة التـــي تلتقي فيها بكتـــاب الله تعالى، وتقرؤه متأمِّلًا متدبِّرًا، وتقع من خلاله على كلِّ شيء.

ـ هناك شفيت من مرضك، ووجدت الطريق، وهنا تعود ســـليمًا بعد مرضك، وحيًّا بعد موتك، وتغشى طريقَك الأنوارُ بعد ظلام الطريق..

ـ هناك وجدت الدنيا العاجلة، وهنا مع كتاب الله تعالى وجدت دنيا عاجلة، وعثرت على آخرة أبدية، ولقيت كلَّ شيء.

• ألم تقــرأ ذات مرة قــول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسـراء: ٩]، وتذكَّرْتَ أنَّ هــذا ليس قول طبيبك الذي يُشــرف علــى حالتك، ولا قــول صاحب الطريق الذي يعــرف كيف يدلك، وإنما قول رب العالمين.

- كم مــرةً أرهقتك مشــاعِرُك، ولقيــت مضضًا وألـمًـا في خاطرك، وكنت تتوق إلى الحياة من خلال رســالةٍ عابرة، أو موقفٍ عــارض، أو فرصةٍ ممكنة للحياة، فإذا برب العالمين يدلك على الطريق، ويقول لك في أعظم وعد يمكن أن تلقــاه في حياتك كلِّها: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]!.

- كم مرةً طال طريق أحلامك، وأصابته العتمات، وتكدَّســت العقبات بينك وبين تلــك الأحلام، فإذا ربك يفتح لك آفاقًــا وأحلامًا، من خلال هذا القرآن: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]؛ فترى النهايــات قــاب قوســين أو أدنــى، وتنجلــي تلك العتمات، وتزول تلك العقبات، مــن خلال المعاني التي يبعثها في آياته وسوره!..



- ﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، أَقــوَمُ في قلبك ومشــاعرك، فلا تجــد ألذَّ لك مــن تلاوته وتدبُّره والإقبالِ عليه، لن أحكيَ لك تفاصيل هذا المعنى، ولا مشــاهدَ جماله، ولا آثــارَه في قلبك ومشاعرك وروحك، فهي فوق الوصف، وأجلُّ من كلِّ عبارة، وأعظم مــن كلِّ حرف، وأدهش من كلِّ شيء..

ولن أتكلَّف لك في البينات، ولكن أدعك مع هذا المشهدِ الآسرِ لأقصى مدى، مشهدِ فئةٍ من النصارى آمنــت بعيســى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصدَّقت بمحمــد ﷺ، حين ســمعت القرآن، لم تتمالك دموع أعينها، وجادت به شــاهدًا على ما في القلــوب: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وإذا كانــت الآية مــن كتاب الله تعالى تســتنطق المشاعر إلى هذا المدى، ولا تجد المشاعرُ دليلًا على ما صنع فيها القــرآن إلَّا الدمع، فتلــك حكايةٌ فوق الحرف بألف مرة.

وأنا هنا أُحدثــك عن أثر القرآن على مشــاعرك، فكيف هي الحكاية في أثره على قلبك ووقتك وعمرك كله؟! فضلًا عن بركة مالك وبيتك وأسرتك وعملك، وبركة التوفيق التي تغشى حياتك كلها، وحديثي عن هذه المعاني أقصر مــن أن يحكيَ لك التجربة كاملة، ولعلَّ فيما سيأتي من شــهادات المتأثِّرين، وأصحاب التجارب، ما يكفيك عن كلِّ شيء.

ـ هل تخيَّلْتَ كتابًا تقرؤه مرارًا في يومك وليلتك؟ وعلى قدر إقبالك عليه تزداد شــوقًا له، وإقبالًا عليه، وتعلُّقًا به، وحبًّا فيه، وشــغفًا به، ثــم تحين تفاصيلُ يتقاصر القلم عن وصفها، ويعجز عن بيانها في مرات كثيرة، وكلُّ كُتُب الدنيا قاطبة تقف قاصرةً عن إقناعك في مرات كثيــرة بقراءتها مرة ثانية، فضــلًا عن ثالثة ورابعة وعاشرة! فلله ما أبعد هذا الفرق!..

ـ أَقْــوَمُ فــي فهمك وفقهــك للحيــاة، فهو يبني أفكارك، ويرتب مفاهيمك، ويصنع تصوُّراتك، فترى الحقائق رأي عين، ولا تكاد تختلُّ عليك شــيء من مصالحك الكبرى في الحياة..

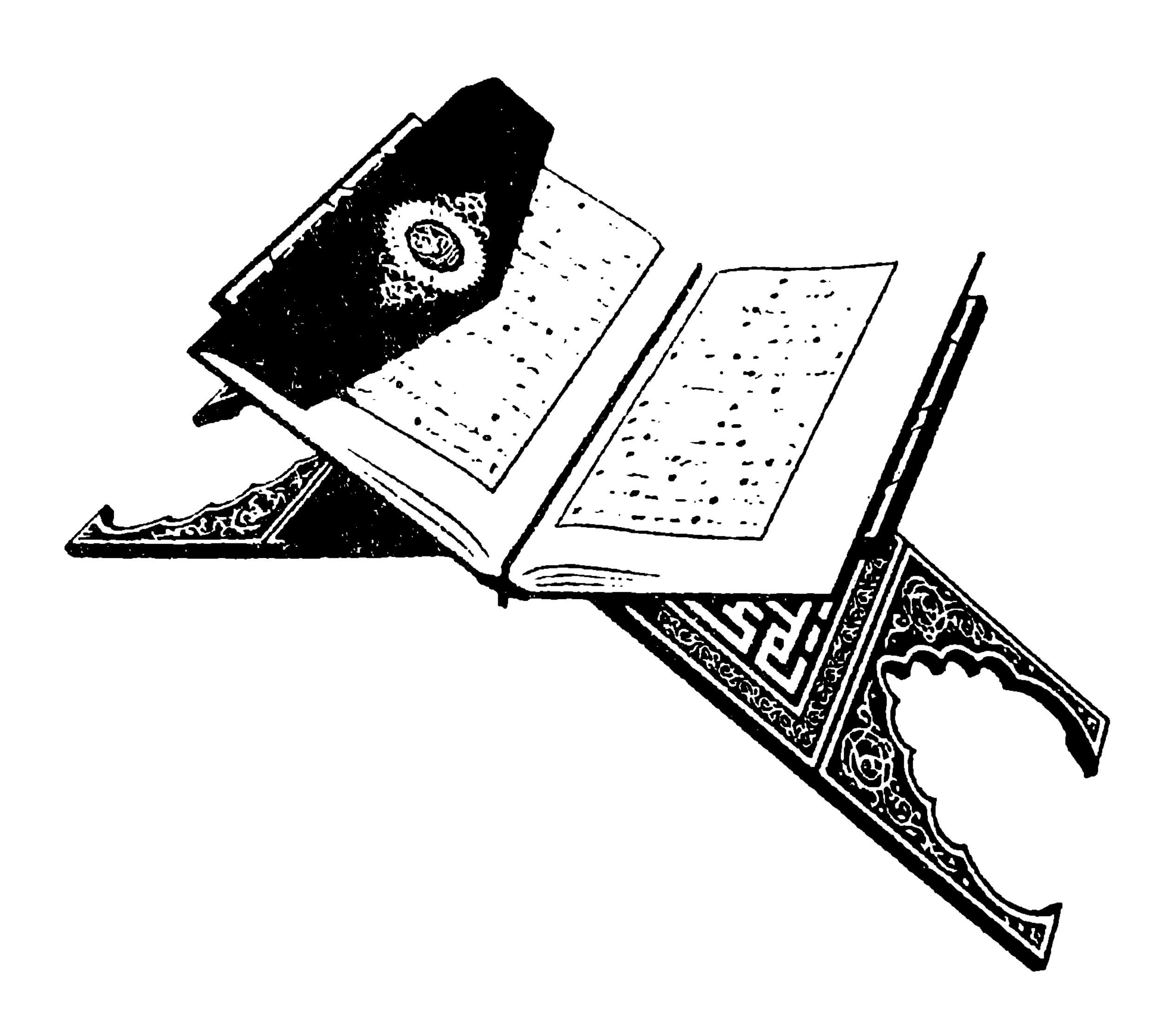


ـ وأَقوَمُ لك في علاقاتك بالآخرين، سـواء كانوا أفـرادًا أو جماعات، حُكَّامًـا أو شـعوبًا، أقارب أو بعيديـن، ويقيم كلَّ هـذه المعانـي والعلاقات على أسسٍ متينة، لا تتأثَّر بالأهـواء ولا بالأمزجة، وإنما تخضـع لقانون العـدل والإنصاف، ويأخـذ الفضلُ والعفو والتسامحُ فيها كلَّ شيء!..

ـ أَقوَمُ في عبادتك وطاعتك لربك تبارك وتعالى، يُريك الطريقَ واضحًا جليًّـا، فتتعبَّد وأنت ترى آخر مسـافة من ذلك الطريـق الطويل، كما تـرى أول المسافات، لا فرق! يصِلك بربك في وسطيةٍ ممتعةٍ ومدهشـة لأقصى مدى! تُصلِّي خمس صلوات في يومك وليلتك فحسب، وبقية اليوم لك، وإذا سافرت تُصلـي ثنتين مـن الرباعيـة، ويسـقط ما بقي من النوافل، وتصوم شـهرًا واحدًا في العـام، وفريضة الحج مرةً واحدةً في العمر، والزكاة في فائض المال، وليس في أصله!.

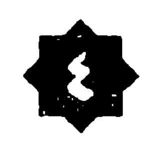
• إنني أدعوك أن تخوضَ رحلة عمرك بتفاصيلها الممتعة، وأحداثها المدهشة، وسـترى في النهايات

ما لم يكـــن لك في الحســبان، وإن كُنــتُ أُدركُ أنَّ الطريــق يحتاج إلــى قليلٍ مــن الصَّبــر، ولكنه في النهايات مُؤْذِنٌ بأفراحك في الدارين.





إنَّ صاحبَ القرآن (تلاوة، وحفظًا، وتدبُّرًا، واستشــفاءً) من أكثر النَّاس عافية، وألذهم عيشًــا، وأعظمهم أُنسًــا، وألطفهم نفسًــا، وأقواهم معرفــة ووعيًا، وأقربهــم للحياة، ولا أعرف شيئًا يُداني هذا المعنى أو يقاربه البتة، وفرق بين ما يقــال، وبين ما يَجْري تجربةً وواقعًا وتطبيقًا.



رُباعية الفَرح

• تخيَّل أنك كنت تنتظر موعد عرسِك، أو قُدوم غائب طال انتظاره، وقلبك يحنُّ إليه بالأشــواق، أو مناســبة تخرُّجِك، كيف ســتكون أفراحك؟ إلى أيٍّ مدًى ستبلغ هذه الأفراح في قلبك ومشاعرك؟

ماذا لو قيل لك: حدِّثنا عن انتظارك لها، وترقُّبِك لحدوثها، وفألك بقدومِها؟ ثم قيــل لك بعد لقائها: صف لنا مشاعرك وأفراحك؟.

في مراتٍ كثيرة مناسبةٌ واحدةٌ (كزواج، أو تخرج، أو مولود، أو عودة غائب من ســفر) نرتِّبُ لها، ونعدُّ لمواعيدها، ويتراقصُ الشوق في قلوبنا للاحتفاء بها إلى أقصى مدًى، ثم ننفق فيها ومن أجلها جزءًا كبيرًا من أوقاتنـــا وأموالنا وأفكارنـــا وجهودنا، ونرى ذلك بعضَ تعابير الفرح وليس كلِّها، ويُشـــارك في تباريك تلك الأفراح والمسرَّات والملذَّات أفواجٌ من النَّاس، وأنت في غمرات الشوق ومشاهد الحياة.

• **ماذا لو قيل لك: إنَّك في هـــذه اللحظة، وليس الغد، على موعد مـــع أربعة أفراح فـــي وقت واحد، مجتمعة غير متفرقة**، وهذه الأفراح ليست في قلبك، وبدنك، ومشاعرك فحسب، وإنما هي في كلِّ شيء، فهل تســـتطيع أن تقصَّ علينا أفراحـــك، وتخبرنا عن مباهج قلبك، وتحدثنا عن أشواقك وأمانيك؟!.

المدهش ولدرجةٍ تفوق تصـــوُّرك أنَّ هذه الأفراح الأربعة تقع في وقت واحد، ثـــم هي لا تكلِّفك مالًا، ولا جهدًا، ولا عنـــاءً، وإنَّما تتمُّ كلُّهـــا لك من خلال بعض الأوقات المستقطعة من يومك وليلتك فحسب!.

ـ **فإن قلتَ**: حدِّثني، قُل لي، صف لي هذه الأفراح المجتمعـــة في آن معًـــا، ولا تكلفني شـــيئًا ضخمًا.. **فســـأدعوك** إلى أن تفتح مصحفك على سورة يونس، الآية (٥٧)، ثـــم اقرأ تلـــك الحقيقـــة العظيمة، التي تستحق منك أن تمنحها قلبك ومشاعرك، ثم تستقبلها استقبال الراغب المتلهِّف لأحداثها في واقعك.

لعلك متشوِّقٌ إلى معرفة تلك الأفراح، وملهوفٌ إلى قراءة تلك الآية، وتُنازعُك روحُك أن تدع حرفي،

وتذهب إلى تلك الصفحة من كتاب الله تعالى، لترى الحقائق رأي عين، ولكن أسألك سؤالَ محبٍّ، ألّا تذهب هذه اللحظة إلى مصحفك، ولا تتعنَّى في البحث، قبل أن تفقه ما أقول لك؛ لأني أعلم أنك مررتَ بها عشرات المرات، ولم تستطع تلك الأفراح مجتمعة أن توقفك برهة من الزمن، فضلًا على أن تعيد لك الحياة، وأخشى عليك أن تذهب، وتعرف الآية، ثم تتنهَّد قليلًا، وتعود إلى ما كنت عليه، ولا تصنع فيك جديدًا!..

عفوًا: اصبر قليلًا، قبل أن أُفصح لك عن الحقيقة، دعني أقل لك هذه الوهلة: كم مرةً قرأت كتاب الله تعالى منذ عرفت هذا الدِّين؟ كم مرةً قلَّبت صفحاته؟ كم مرةً ختمت أجزاءه؟ ثم ماذا؟..

قد لا تجد جديدًا يستحقُّ الفرح! أنت كما أنت، تفتح مصحفك، ثم تقرأ فيه ومنه ما تشاء، ثم تُطبقه وتخرج منه كما دخلت إليه أول مرة، لا فرق؛ فماذا تصنع فيك آيةٌ واحدةٌ من كتاب الله تعالى ولو كان فيها ألف معنى؟!..

- **فإن قلت:** لا ترهقني، ولا تلظَّ مشـــاعري بهذه الأسئلة، فذاك زمان أرجو أن يكون ولَّى من حياتي، وها أنـــا عازمٌ على رحلـــةٍ جديدةٍ لمســـتقبل الأيام، وأعِدُكَ أنني إذا لقيت الحقائق، لـــن أدعها حتَّى أَرِدَ منهـــا للحياة، **فســـأقول لك:** الآن يمكنـــك أن تفتح مصحفك، وترى الحقيقة التي تبحـــث عنها متلهِّفًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

١ - تخيَّل أنك بمجـــرد إقبالك على كتاب الله تعالى، يتعرض قلبُك لموعظةٍ يرقُّ لها، وتخشـــعُ لها جوارحك، وتدمعُ لها عينـــك، وتقرأ تفاصيل ممتعة عن الأفكار، والمفاهيم، والتصوُّرات، تبني فكرك ومفاهيمك وتصوراتك، وتجلو لك الطريق، وتقشـــع عنك الظلام، وتعرض لك الحقائق كأنها رأيَ عيـــنٍ، وهـــي أولًا وأخيـــرًا من ربـــك الذي خلقك، وهـــو أَعْـــرَفُ بدواخل نفســـك، وخفايا ضميرك، وما يصلحُ لك في حاضرك، ومستقبلك، ولو اجتمع خبراء الدنيا كلها لن يقدِّموا لك بعضًا

من أحداث هذه الموعظة في حياتك، فضلًا عن كلِّ أحداثها..

وفي مرات كثيرة ندفع أموالًا، ونبذل أوقاتًا، ونصنع كلَّ شيء من أجل فكرة أو مفهوم أو تصور، ثمَّ لا نجد شيئًا من تلك الأحلام التي نشتاق إليها، ونرقُبها مع الأيام.

كم هي الكتب التي دفعنا فيها أموالنا، وبذلنا فيها أوقاتنا، وصنعنا لها كلَّ شيء في حياتنا، ثم خرجنا منها في النهاية بأقل القليل، فلا هي منحتنا الحياة، ولا هي عوَّضتنا ما بذلنا فيها مع الأيام، **بينما هذا الكتاب الكريم يُخاطِبُ قلبك ومشاعرك، ويبني مفاهيمك، ويؤسِّسُ لتصوراتك**، وإذا قرأته بوعي خرجت منه بتصورات هي الحقائق، التي لا يغني عنها شيء في الحياة كلها.

تعرفُ من خلال هذا الكتاب: لماذا خُلقت؟ ما سرُّ وجودك في الأرض؟ مَن عدوك؟ كيف تتعامل مع العالم من حولك؟ يُريك تاريخَ الأمم والأفراد والجماعات والدول، في صورٍ متنوِّعة، ومدهشة،

ومثرية لواقعك، حتَّى إنك تــرى حقائق الحياة رأي عين، ولا يبقى فيها شيء مجهول!..

٢ ـ واللبِنَة الثانية من تلك الأفــراح: أنَّ هذا القرآن شفاءٌ، شفاءٌ لعيِّك وجهلك، ولا تكاد تسأل عن حقيقة إلَّا وهي موجودة بين ســطوره، شــفاءٌ للشكوك التي تُداهمــك، والأوهام التــي تعرض لــك وتحاصرك، وما أكثر الحيارى فــي عالم اليوم الذيــن يعانون من الشكوك والأوهام! وكل هؤلاء الحيارى ما كانوا بحاجةٍ إلى تلك المصحَّات النفسية، ولا المشافي الكبرى، لو أنهم استقبلوا هذا الفرح، وسقوا منه أنفسهم مع الأيام.

شــفاءٌ لك من أمراض الشــبهات التــي تعرض لفكرك، والشــهوات التي تغزو مشــاعرك، وإذا صحَّ القلب من مرضه، رفل في أثــواب العافية، وأصدقُ البيِّنات أنَّ كلَّ الذين في هذه المصحات لو تَخَلَّوا عن كلِّ شيء، وأقبلوا على القرآن وحده، لوجدوا فيه ومن خلاله كلَّ شيء.

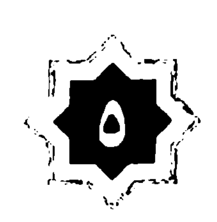
٣ ـ واللبِنَة الثالثة من تلك الأفراح: أنَّ هذا القرآن هدًى، يهدي قلبك ومشاعرك للحق، ويهدي عقلك

وفكرك للصواب، يهديك إلى الطريق الصحيح دون عناء، ويهديك إلى الحقائق دون كدٍّ وجهدٍ وبلاء، يهديك إلى الفهم الصحيح، والاختيار الأمثل، والرأي الأصوب في زحمة الأفهام والآراء التي تعرض لك.

وكم من آيةٍ طرقت أذنَ غافلٍ، ثم أقبلت به على الحياة من سماعٍ عارض! وصورُ ومشاهدُ هذه الهداية أكبر من أن يُحررها حرفٌ في مثل هذا المقام.

٤ ـ واللبنة الرابعة من تلك الأفراح: أن هذا القرآن رحمةٌ لك، وصور ومشاهد هذه الرحمة تجلُّ عن الوصف، لقد عرضَ لك حقائق الحياة رأي عين، ودلَّك على الطريق من أقرب المسافات، وبيَّن لك النهايات، وعرَّفك بالله تعالى أتمَّ تعريف، وبيَّن لك الحقَّ من الباطل، وأمدية الصراع بينهما، وكشف لك الأعداء كشفًا لا يلتبس على مخلوق، وأفاض في سنن وقوانين الحياة، ولم يترك سؤالًا لمؤمنٍ يحتاج إلى جواب.

• **هذا هو القرآن، وهذه هي رباعية الفرح فيه**، ولو تهيأ لك مشهدٌ واحدٌ من مشاهد هذه الرباعية، فضلًا عن كلها مجتمعة، وعرفت معانيها، وأدركت ما فيها من أسرار، لبقيت مدى العمر مدهوشًا بهذه المعاني التي تعرضها آيةٌ واحدةٌ من ذلك المعَين، فكيف بالآية والسورة منه؟! بل كيف بك وأنت تأتي على نهاية ختمة تلوتها، وأنت تقرأ فيها ومن خلالها طريقك في الحياة، وتتكشَّف بها ظلام قلبك ومشاعرك، وتبحث من خلالها عن سُبل النجاة، وترى في النهاية كلَّ شيء؟!.



أفياءُ الأرواح

• ثَمَّة كتبٌ تصلح لفكــرك وعقلك، وكتبٌ لبناء تصوراتك، وكتبٌ لحفزك على بناء مستقبلك، وتظلُّ في النهايــةِ كلُّ هذه الكتب قاصرةً عن تلبية أشــواقِ روحك ومشاعرك!..

حين تفتحُ كتابَ الله تعالى تجده يغطِّي كلَّ تلك المساحات التي أشــرتُ إليها، ويُضْفي على روحك من أجواءِ الحياة والجمال والدَّهشة ما تظلُّ عاجزًا عن وصف شــعورك تجاه تلك اللحظات التــي تمرُّ بك وأنت بين ظلاله الوارفة.

• دعني أُبيِّــنُ لك واحدةً مــن الحقائق الكبرى، التي تؤكد لــي ولك أنه لا يمكن لكتــاب في الدنيا كلها بــكلِّ ما يملك من مقومــات التأثيــر، أن يهزَّ مشاعرك، ويستدرَّ الدمعَ من عينك، ويلقي بك أسيفًا في لحظةٍ ما؛ ككتاب الله تعالــى، مهما كانت الروح

التي يحملها ذلك الكتــاب، والطريقة التي كُتب بها، والمعارف التي يُثبتها، والأحــداث التي يُخبر عنها، ذلك يا صديقي وقفٌ على كتاب الله تعالى فحسب.

- كم هي المرات التي اســتدرَّ القرآن الدَّمع من عين **رسولك** ﷺ، وسُمع لصدره أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء؟! هل أُحدِّثك عن الليالي التي بات ساهرًا يبكي، ويكفكــفُ دموع عينيه، وهو يقــرأ قول ربه تبــارك وتعالـــى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]؟!..

أو أخبرك عن الليلة المشاعرية التي قال فيها ﷺ لابن مســعود رضي الله عنه: «**اقرأ عليَّ**» قال: أقــرأ عليك، وعليك أُنزل؟! قال: «**نعم، إني أحبُّ أن أسمعه من غيري**» فقرأ من سورة النِّساء، حتَّى بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النســاء: ٤١]، فقال: «**حســبُك الآن**». قــال ابن مســعود رضي الله عنه: فالتفــتُّ إليه، فــإذا عيناه تدمعان![1].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨٢) ومسلم (٨٠٠).

وفي الترمـــذي، وحسَّـــنه الألباني، مـــن حديث عائشـــة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ قال لهـــا ذات ليلة: «**ذريني أتعبَّد لربي**» فقلت: والله إنـــي أحبُّك، وأحبُّ قُربَك، وأحبُّ ما يســـرُّك، قالت: ثم قـــام، فتطهَّـــر، ثم قام يُصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتَّى بَلَّ حِجْرَه، قالت: وكان جالسًـــا، فلم يزل يبكي حتَّى بَلَّ لحيته، قالت: ثمَّ بكى حتَّى بلَّ الأرض، فجاءَ بلال يُؤْذِنه بالصلاة، فلمَّا رآه يبكي، قال: يا رسول الله، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدَّم مـــن ذنبك وما تأخر؟ قـــال: «**أفلا أكونُ عبدًا شـــكورًا؟! لقد أُنزلت عليَّ الليلةَ آيةٌ، ويلٌ لمن قرأهـــا ولـــم يتفكَّـــرْ فيهـــا**: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ [آل عمـران: ١٩٠ ـ ٢٠٠] الآيـــات من ســـورة آل عمران».

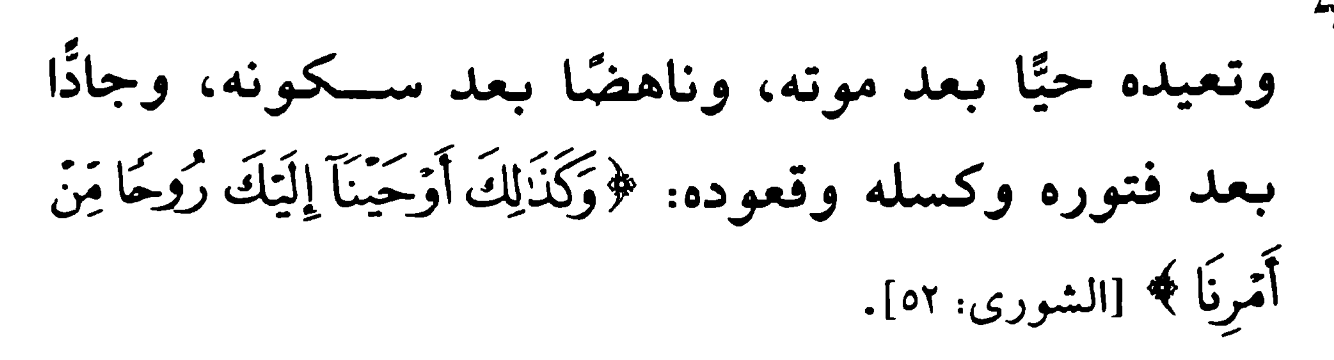
ـ وهذا كان حال **أبي بكر الصديق** رضي الله عنه مع كتاب الله تعالى؛ فقد كان لا يتمالك نفســـه من البكاء عند قراءته، وقد اعتذرت له عائشة رضي الله عنها حين أمره النبي ﷺ بأن يصلي بالنـــاس في مرضـــه، فقالـــت: إنَّه رجلٌ أسيف، وإنه متى يقم مقامك لا يُسْمِعُ الناسَ!.

ـ **فكيف بالفاروق عمر** رضي الله عنه وهو أشجع الرجال،

وأقواهم قلبًا، وأصلبهم في المواقف، وأجدرهم بالتحمُّل، ثم إذا هو بين يدي كتاب الله تعالى لا يجد إلَّا الدُّموع برهانًا على ما صنع القرآن في قلبه من أحداث، فقد كان يتلو كتاب ربه تعالى ويبكي، لدرجة أن يُعادَ في بيته أيامًا من أثر ما قرأ من القرآن!.

ـ أو أسرد عليك **حكايات السَّلف**؛ حيث يبيت الواحد منهم ليله يردِّد الآية الواحدة، ثم لا يكاد يجاوزها حتَّى يحين موعد الفجر، وربما قام أهله على بكائه، وفزعوا عليه، وقلقوا، فإذا بالأول يقول: إنه قرأ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، والآخر يفصح أنه قرأ: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وثالث، ورابع، وعاشر، وكلهم يعترفون في النهاية أنَّ هذا هو الذي أشجاهم، ودفعهم للبكاء!..

• **لقد أخبر ربُّك تعالى: أنَّ هذا القرآن ليس حرفًا يُتلى، ولا آية تُقرأ، ولا سورة تُتَمَّم، ولا جزءًا يُختم، وإنما هو روحٌ تنفخ في قلب صاحبها الحياة، وتستدرُّ الدمع من عينيه، وتأتي على مشاعره من كلِّ زاوية،**



وتعيده حيًّا بعد موته، وناهضًا بعد سكونه، وجادًّا بعد فتوره وكسله وقعوده: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

تخيَّل هذا المعنى، وألقِ بروحك وقلبك وفكرك ومشاعرك في ظلاله، وكرره مرارًا: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ آه ألف مرة! على نفوسٍ لا تلقى هذه الأصداءَ المشاعريةَ في واقعِها!..

إنَّك لن تُدركَ أسرار هذا المعنى ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وشجونه، حتَّى تفقه كيف نزل هذا القرآن على أمةٍ لا تعرف إلَّا الوثن والصنم والحجر، ثم إذا به في فترةٍ وجيزةٍ يدكُّ مفاهيمها، ويُغِيرُ على أفكارها، ويبعثر تصوراتها، ويعيدها من جديد تشرب من معين الحياة حتَّى تَرْوَى.

إذا أردت أن تعرف معنى ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، فانظر إلى صناديد قريش الذين تربَّوا على الكفر عشرات السنين، وتشرَّبوا من الجاهلية حتَّى ارتووا، ثم يأتي هذا القرآن فيلوي أعناقهم في لحظةٍ ما، ويستدرُّ الدمع من عين الواحد منهم في موقفٍ عارض،

ويلقيه ساجدًا دون مقدِّمات، ويلقي الحياة في قلبه فيعود مؤمنًا تقيًا صالحًا من جديد!..

لقد كانت قريش تعرف تمامًا ما معنى ما يُتلى من كتاب الله تعالى! كانت تعرف تمامًا أثر هذه اللحظة على مسامعها، وهي الأمة العربية الفصيحة، كانت تدرك أنها ليست كلمات يسمعها صاحبها فيعود يفكر في الطريق، ويحسب من خلاله التبعات، وإنما كانت تدرك أنه روحٌ تسري في الوجدان، وتضرب في القلوب، وتقع في النفوس، وتقلب المشاعر، وتعيد بناء الإنسان في لحظة، فإذا به في صفوف الحق وجنود الإيمان، ولذلك كانت في أيام الحج وغيره تصطَفُّ على حدود مكة، ثم لا تزال تصنع كل شيء لإرهاب الداخلين إليها؛ خوفًا من طارق القرآن على قلوبهم، وحادي الأشواق على مسامعهم، ولا تزال بهم حتى يضع الواحد منهم قطنًا في أذنيه حتَّى لا تتسلل إليه روح القرآن، وتضربه في مقتل، وتخسره قريش من خلال بضع آيات!..

- ومن أصدق الأحداث على هذا المعنى: خبر **جبير بن مطعم**، وقد جاوز ذلك الإعلام، ووصل إلى

الكعبة، وهو على كفره، فسمع النبي ﷺ وهو يتلو قول الله تعالى من سورة الطور: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦]، فقال كلمته المشهورة: كاد قلبي أن يطير!.

- حين كانت بيعة العقبة انتدب رسول الله ﷺ **مصعب بن عمير** رضي الله عنه إلى المدينة؛ لِيُقْرِئَ القوم كتاب الله تعالى، ويعلِّمهم الإسلام، فنزل على **أسعد بن زرارة** الأنصاري الخزرجي، وخرجا ذات يومٍ إلى حي بني عبد الأشهل يدعوان القوم إلى دين الله تعالى، فسمع بهما كبيرا الحي: **سعد بن معاذ، وأُسَيْد بن حُضير**، فضاقا بهما، وأنكرا موضعهما من الحي، فقال سعد بن معاذ لصاحبه أسيد بن حضير: لا أبا لك! انطلق إلى هذين الرجلين، فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا ديارنا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث علمتَ كفيتُك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدمًا.

فأخذ أسيد بن حضير حربته، وتقلَّد سيفه، وأقبل إلى صاحبي رسول الله ﷺ، فوقف عليهما، وزجرهما وتوعَّدهما، وقال: ما جاء بكما تسفِّهان ضعفاءنا، اتركانا إن كانت لكما بنفسيكما حاجة، أي: إن كنتما

لا تريدان الموت، فقال لــه مصعب ﵁: أو تجلس فتسمع، فإن رضيتَ أمرًا قبلتَه، وإن كرهتَه كُفَّ عنك ما تكره.

فرَكَز أسيد حربته، واتكأ عليها، وهو ينتظر لحظة باردة، وهو أعجل ما يكون إلى خاتمتها؛ ليرى قفاهما من أرض المدينــة، وليس في فكره ومشــاعره غير ارتقاب تلك اللحظة فحسب!.

بــدأ مصعب يتلو كتــاب الله تعالى على مســمع الرجل، وإذا بالقرآن يأخذُ بِلُبِّه مــن أول لقاء، ويُغِير القرآن على كلِّ معتقداته وأفكاره وأوهامه وتصوراته، ثم يلقــي بها في أرضٍ ســبخة، فإذا بــه يتخلَّى عن الجاهلية، ويعود مســلمًا من خلال لحظة واحدة أمام كتاب الله تعالى، ولم يحتج معهــا إلى لحظةٍ رديفة، فضلًا عن يومٍ آخر، ثم إذا به يعود، ويأخذ في صحبته سعد بن معاذ، وما هي إلَّا لحظات حتى يقف مجلًّا لكتاب الله تعالى، مسلمًا، راميًا بكلِّ أوثان الجاهلية وراء ظهــره، فيصطحبــا فــي الطريق إلــى قومهما فيعرضان عليهم الإسلام، فوالله ما أمسى في حي بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلَّا مسلمًا ومسلمة!.



ولن أزيدك على ما تصنع هــذه الروح في قلوب السامعين لها، والأمثلة أكثر من أن تبسط شجونها في مساحةٍ كهذه!..

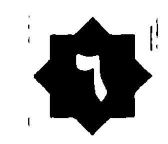
• هذه مشــاهد الروح التي حدَّثتُكَ عنها، ولكنِّي أذكِّرك أنَّني لم أنتهِ بعدُ من تمام الآية ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

فما شأن النور الذي يحمله القرآن؟ وما مداه في قلبك ومشاعرك؟ وما دوره في نفسك وواقعك؟..

ذاك يا صديقي نورٌ حسِّــيٌّ يُشرق به وجهك، ويزدان به قلبك، وتستأنس به نفسك، وتطمئن به خواطرك، وتســكن إليه روحك ومشاعرك، وتجد هذه الظلال الوارفــة في كلِّ لحظــة تقضيها مع كتاب الله تعالى، أو تصرفها في فقه معانيه، ونورٌ معنويٌّ يُبْصِرُ بــه قلبُك وفكرُك الحــقَّ، وتعرف مواقع الضلال، وتَتَبَيَّنُ لــك به ومن خلاله الفتن والشهوات والشــبهات، وترى به ومن خلاله كلَّ شيء.

تخيَّل أنك في الظلام ومعك النــور، وفي الفتن ولديك الضوء الكاشف لها، وفي المحن والمصائب وفي فكرك من الهدى ما تعرف به كلَّ شيء! وايم الله إن كلَّ الأفكار والمفاهيم والتصورات التي نلقاها في حياتنا من فجر التاريخ إلى نهايتــه، لو أنَّ كلَّ عاقل عرضها علــى كتاب الله تعالــى قبل أن يُصْــدِرَ فيها حكمًا؛ لتبدَّت له أوضح من الشمس في رابعة النهار، ولكنها الغفلةُ التــي نترك بها مــورد الربيع العذب، ونذهب نبحث عن الماء في متاهات الصحراء!.





نوافذ الرحمة

• هل رأيتَ ذلك التنافسَ المحمومَ في القنوات الفضائية، في مسابقاتٍ يكونُ عائدُها شيء من المال؟ كم مرَّةً عشتَ لهيب تلك المسابقات، ووضعت يدك على قلبك ألَّا تكون ضمن الفائزين؟

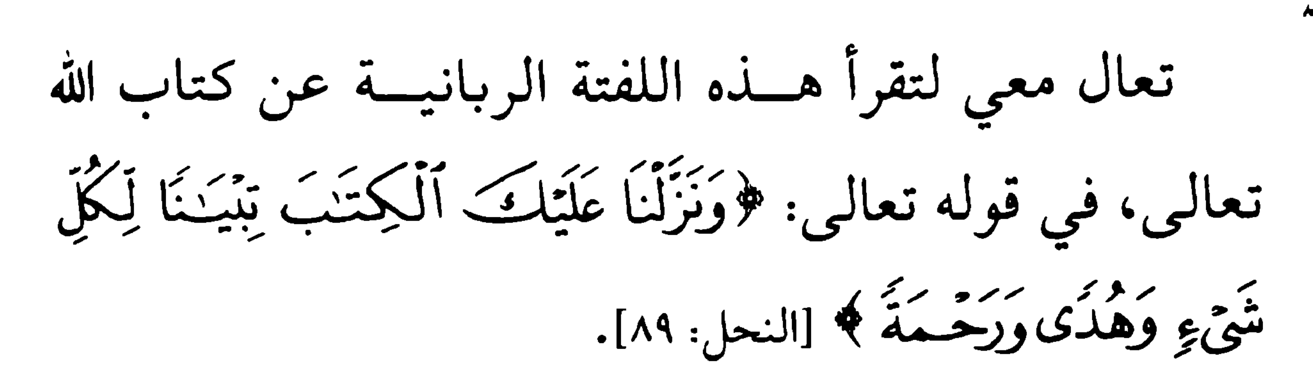
حَدِّثْني عن فرحك وسرورك وأنت تفوز بجائزة، أو تلقى تكريمًا، أو تكون في عداد المكرَّمين يومًا من أيام عمرك! ثمَّ في النهاية تنتهي تلك المشاهد كلها، ولا يبقى منها سوى الذكريات!.

هل جربت المشاركة في مضاربات الأسهم، وكنتَ يومًا أمام شاشةٍ من الشاشات التي تعرض قيمة تلك الأسهم ارتفاعًا وانخفاضًا! حَدِّثْني عن قلبك في تلك اللحظة، وأنت ترى أنَّ أسهمك بلغت الذروة في يومٍ واحد، وإذا بالأماني تذهب بك بعيدًا إلى الغد، وأسبوعك القادم، وشهرك التالي، ونهاية العام، وإذا

بك تبني من خلال ذلك المشهد ألف صورةٍ للحياة.. أو تراها وقد نزلت للقاع، وقد دفعت فيها مبلغًا ضخمًا، ثم إذا بك تسمع خبرًا متداولًا أنه لا قيام لها بعد اليوم، فأدرك نفسك، وأخلفَ الله تعالى عليك فيما ذهب، وإذا بالآلام تأخذ بقلبك ومشاعرك إلى أسوأ حال!..

• هذه المواقف التي عرضتُ بعضَ صورها ومشاهدها عليك، إنما هي صورةٌ عاجلةٌ في حياتك الدنيا فحسب، ماذا لو قيل لك: **ثمة مشروع ومنافسة ومسابقة، فوزك فيها ونجاحك من خلالها، وقدرتك على المساهمة فيها لا يمنحك جائزة، وإنما يصنع لك مشاهد الجمال والدهشة إلى أقصى مدًى!.**

مشهدٌ تشارك فيه لا يكلفك مالًا، ولا يستنزف من مشاعرك، ولا يصنع لك قلقًا، وإنما يفتح لك أبوابًا من الرحمة والرضا ومشاهد من البركات والتوفيق.



تعال معي لتقرأ هــذه اللفتة الربانيــة عن كتاب الله تعالى، في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [النحل: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

يخبرك ربك تعالى أنَّ كتابــه رحمة، فماذا بقي؟ عن أي شيء تبحث بعدما قال ربك؟.

ثم لعلــك تقول: كيــف هي تلــك الرحمة؟ أين تكون؟ ومتى؟ وما الطريق إليها؟..

ـ رحمةٌ يهبهــا الله تعالــى أول مرة فــي قلبك، وتجــري مشــاهدها في مشــاعرك، فتشــعر بالأُنْس والطمأنينة، والراحة والاســتقرار، وترى الأشياء من حولك ممتعةً ومدهشة إلى أقصى مدى.

رحمة تجد بهــا الســكينة والطمأنينــة، والراحة والاستقرار، كما قال ربك: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]..

رحمةٌ، وأنت ترى العالـــم من حولك يعيش في قلقٍ واضطــرابٍ وفوضى، وأنت في ظـــلالِ الأُنْسِ والراحة والطمأنينة! ترى من يعاني المشاق ويكابد الصعاب وأنت في مباهج الحياة.

رحمةٌ تبصر بها الحقَّ مـــن أول وهلة، ويبين لك الشَّـــرَّ من أول محاولة، وآخرون يعيشون في الظلام، فلا يبصــرون حقًّا، ولا يعرفــون هدى، ولا يميزون بين الأشياء، ولا يتبيَّن لهم الفجر من الظلام!..

ـ رحمةٌ تأخذ حظها من بيتك وأسرتك وولدك، فترى مشـــاهد النعيم تحفُّ بتلك الأســـرة، فتؤلِّف بينها، وتخلق فيها مشاعر الحب والجمال، فتتبدَّى لك صور التعاون والأنـــس والتآلف، حتَّى لا تكاد تجـــد خلافًـــا، أو تـــرى نزاعًـــا ظاهـــرًا فـــي تلك المســـاحات، وتدرك حينها أن تلـــك آثار رحمة الله تعالى فحسب. ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقد قال أبو هريرة رضي الله عنه : **إنَّ البيتَ لَيَتَّسِعُ على أهلِهِ، وتَحْضُرُهُ الملائكةُ، وتَهْجُرُهُ الشَّياطينُ، ويَكْثُرُ خيرُه: أن يُقْرَأَ فيه القرآنُ!**.

- **رحمةٌ تغشاك في عملك ووظيفتك،** فييسره الله تعالى لك، ويعينك عليه، ويدفع عنك عوارض الطريق، ويكون لك أثرٌ ظاهر فيه، فتجد فيه أُنْسًا وإلفًا وجمالًا، وتشعر فيه بالبركة، وتجد فيه كلَّ شيء، وتدرك حينها أن ذلك بعض أفياءِ الرحمة التي أظلتك، وآثار التوفيق التي تصحبك: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

- **رحمةٌ في وقتك، فيبارك الله تعالى لك في عمرك، فيجعلك أكثر إنتاجًا وأخصب أثرًا وأكثر تأثيرًا**، ويتحوَّل يومك مقارنة بالمحرومين من هذا الفضل إلى أيام وأسابيع وأشهر، وتصنعُ البركةُ ما لا تحيط به العبارة، ولا تأتي إليه الإشارة، في مثل هذه الأسطر العجلى على ضيق من الوقت، وكثير من هذه المعاني تُذاق بالتجربة الحسية فضلًا

عن ذوق الوجـــدان! ومن جَرَّب عـــرف، ومن ذاق استلذ، والله المستعان!.

بركةٌ كتلك التي تحدَّث عنها ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، عن شيخه ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ حين قال: فكان يكتب في اليوم ما نكتبه في أســبوع، ويكتب في أسبوع ما نكتبه في شهر. اهـ.

قال بعض الســلف: كلَّما زاد حزبـــي من القرآن، زادت البركةُ في وقتي، ولا زلت أزيد حتى بلغ حزبي عشرة أجزاء. اهـ.

وقال الضياء المقدســي: أوصاني شيخي فقال: أَكْثِر من قراءة القــرآن، ولا تتركه، فإنه يتيسَّـــر لك الذي تطلبه علـــى قدر ما تقرأ. قـــال الضياء: فرأيت ذلك، وجربته كثيرًا، فكنتُ إذا قرأتُ كثيرًا تيسَّر لي من ســماع الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ لم يتيسّر لي. اهـ. ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

- رحمةٌ في يومك وليلتك، وفي قلبك ومشاعرك، ورحمةٌ في صرف الهموم والمشاق، والعثرات والعقبات من طريقك، فلا تكاد تأتي بابًا إلَّا وتجده مفتوحًا، ولا طريقًا إلَّا ميسَّرًا، ولا قلبًا إلَّا منشرحًا، فييسر لك شأنك كله، ويفتح لك أبواب التوفيق على مصاريعها: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

- رحمةٌ في دنياك، مكَّنك الله تعالى بها من معرفة الحق، والفرح به، والإقبال عليه، وثبَّتك بها على الطريق، وأمدَّك بتوفيقه وهداه، ورحمةٌ في المقابل بأن عرَّفك على الباطل، وأبان لك عن صوره، ومكَّنك من التمييز بين الصالح والفاسد..

- رحمةٌ في بيان الهدى والضلال، والنور والظلام، فلا يكاد يلتبس عليك الطريق، ولا تكاد تضيق بك الحاجات في شيء.

- رحمةٌ في معرفة الصواب من الخطأ، والمعروف من المنكر، فتجري حياتك كما تريدُ

سواء في أفكارك ومفاهيمك، أو في تصوراتك، أو في التعامل مع الآخرين، وفي كلِّ شيء.

- **رحمةٌ في قبرك، وعند سؤال الملكين لك، وبين يدي ربِّك في ساحات الجزاء والحساب**، حين يكون القرآن مؤنسًا لك، وأعظم أعمالك الصالحة، حين يقول لك: (أنا عمَلُك الصالح): ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

• **وإني أذكِّرك ألَّا يتقاصر فهمُك، ويضيق فكرُك، فتستغربَ أن يكون لكتاب الله تعالى كلَّ هذه المعاني**، وأنتَ تقرأُ وتردِّدُ في كلِّ مرةٍ قول ربك: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

- فالرحمةُ جاءت في الآية مطلقةً، فهي تعني كل شيء؛ فإذا لم تتخيَّل هذه المعاني لكثرتها، فتأمل في قصة فتية الكهف حين خرجوا من المدينة إلى الصحراء، ومن السعة إلى الضيق، ومن الجماعة إلى الوحدة، ومن الاستقرار إلى الغربة، ومن الظل إلى

الشمس، ومن الاجتماع إلى الفرقة، حين ألقى الله تعالى عليهم رحمته، فقال: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الكهف: ١٦].

فتحوَّل المكان إلى راحةٍ وسعةٍ واستقرار، وتبدَّل الضيق سعةً، والكرب فرجًا، والهمُّ فرحًا، والتشرد استقرارًا، والخوف طمأنينةً!.

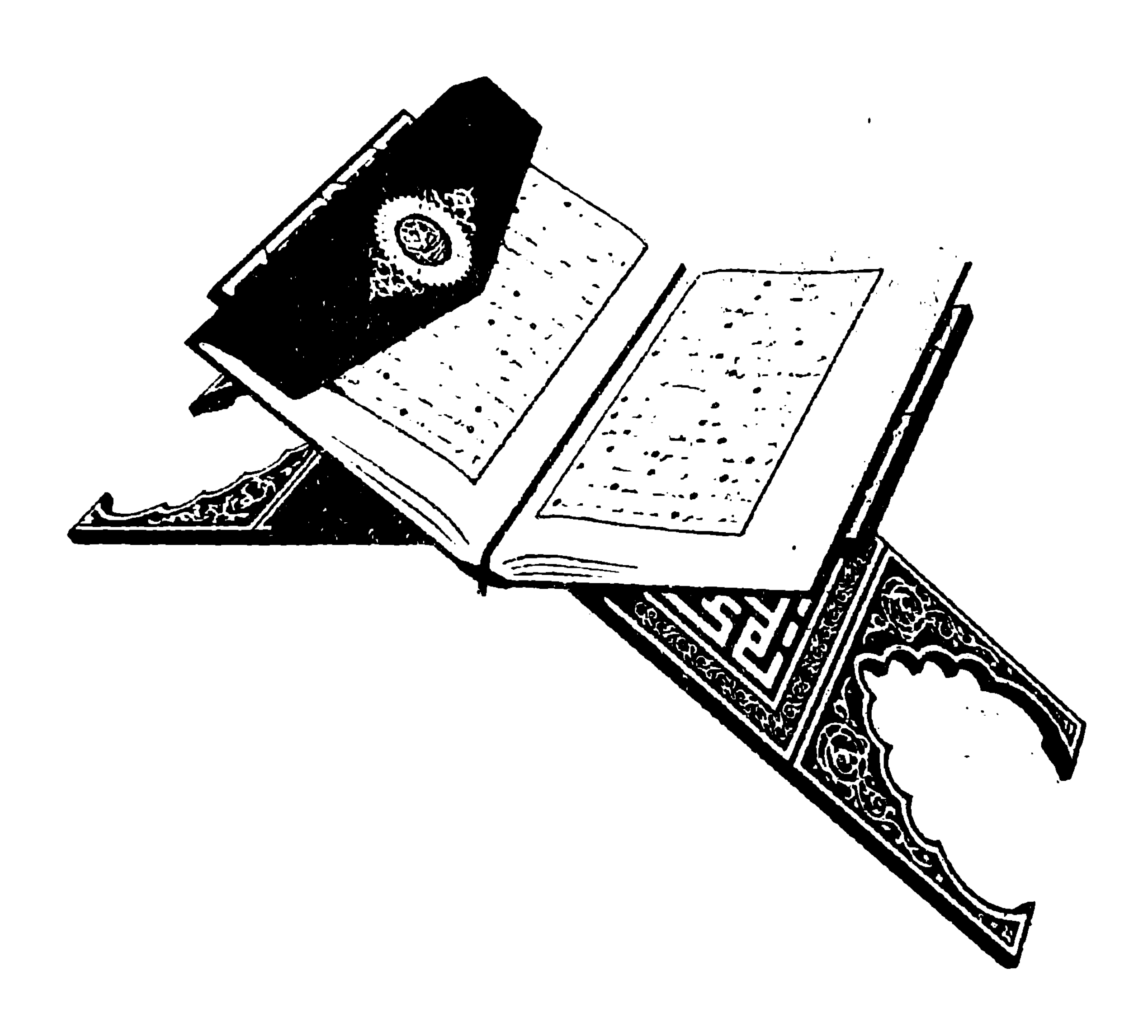
ـ ولو أنَّ صاحب تجربةٍ دلَّك على آثار تجربته، وما وجد فيها، لألقيتَ بقلبك ومشاعرك إليه، ولصنعتَ كلَّ شيء في الطريق إلى تلك التجربة الإنسانية، فكيف إذا وعدك الله تعالى، ودلَّك على الطريق من خلال كتابه تعالى؟!..

• **ثم تخيَّل في المقابل أنك تركت هذا النعيم، وتخلَّيت عن هذا المورد العذب، وتغافلت عن هذه الفرصة المدهشة، فنزع الله تعالى من قلبك ومشاعرك الرحمة، فأنَّى لك بالطمأنينة، وراحة البال، والاستقرار في حياتك؟!..**

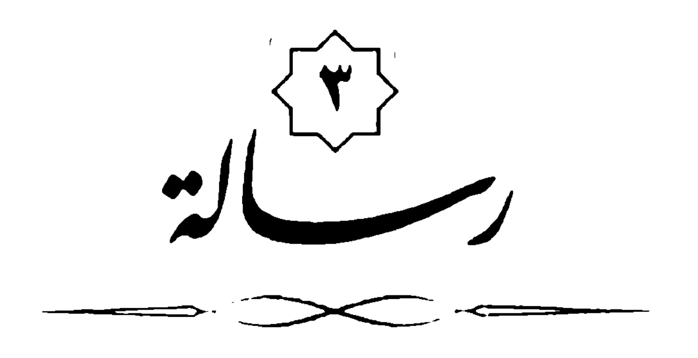
ماذا لو أنك تجافيت عن الطريق، وأعرضت عن هذه المعاني؟ فتركك ربك، وخلَّى بينك وبين



نفسك، وسلبك مشاهد رحمته وتوفيقه، فإذا بك في شـقاءٍ مع قلبك، ونزاعٍ مـع روحـك، وخصامٍ مع زوجـك وولدك، وخـلاف مع رحِمـك وصديقك، وشـقاءٍ في عملـك ووظيفتك، وعثـرات في طريق فكرتك، ومشـروعك وقضيتك! ثم لا شـيء سوى الشـقاق، والخلاف والضياع، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].







• وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القــرآن بالتَّدبُّر والتفكُّر، فإنـــه جامعٌ لجميع منازل الســـائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يُورِثُ المحبَّةَ والشَّـــوقَ، والخوف والرجاء، والإنابـــة والتوكُّل، والرضا والتفويض، والشـــكر والصبر، وسائرَ الأحوال التي بها حياةُ القلب وكماله.

ابن القيم رحمه الله



مَنْ صاحبك؟

• **لا تكاد تجد إنســانًا في دنياك دون صاحب! وكلُّ إنسان مجبول على حبٍّ وصحبة من يشاكله في الأخلاق والطباع**، وتلك فطرةٌ في نفس بني آدم من فجر التاريخ إلى يومــك، فلا تكاد تجد كبيرًا إلَّا وله صاحب، ولا تكاد تــرى صغيرًا في مقتبل العمر إلَّا ولــه نُدَماء يشــاركونه همومه، ويُفضي إليهم بما يشاء.

ـ **إذا قلتَ**: فــلان صاحب فلان، فأنت تحكي عن علاقةٍ متينةٍ، ورباطٍ وثيق، وخلَّةٍ طويلة الأمد، كثيرة اللقــاءات، مرفوعة الكلفــة بين الصاحبيــن؛ لكثرة الخلطة، ودوام اللقاءات، وكثرة الترداد.

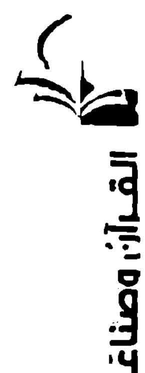
ـ **إذا قلــتَ**: إنَّ هذا صاحبك، فمــن الطبيعي أنه يعرف كلَّ شــيء عنــك، بما فــي ذلك أســرارك، وخواطرك، حتى عوالق نفسك وظروفها، بل لا يكاد

يغيب عنه شـــيءٌ من أمرك، وما أكثـــر المنتفعين في قضاء حوائجهم من صاحبك عن طريقك!.

قل لي، حَدِّثْني: لو كان صاحبك ملـــكًا أو أميرًا أو وزيرًا أو مسؤولًا كبيرًا، وبينكما صحبة متينة، فلا تكادان تغيبان عن بعضكمـــا بعضًا، ولا يفصلكمـــا إلَّا عارض الزمان، وتخيَّل في المقابل وأنت مع صاحبك، والنَّاس ترقبك وتغبطك، ورأســـك يطاول السَّماء بهذه الصحبة، وفي مراتٍ كثيرةٍ تصوِّر مشاهد تلك اللقاءات، وتبعث بها في وسائل التواصل الاجتماعي؛ لتري العالمَ من حولك مَنْ صاحبك، ورفيق دربك، ونديم أيامك ولياليك!.

ولو أني سألتك عن مشاعرك وأفراحك بأثر تلك الصحبة، وما تجد في قلبك ومشـــاعرك، لكان حديثًا فوق العادة، وقد لا يســـتطيع القلم أن يصوِّر أفراحك وشـــجونك بذلك المعنـــى الكبير فـــي واقعك تلك اللحظات.

ثم ماذا؟ طـــولُ الأيامِ يُفقدُك لـــذةَ تلك الصحبة، وكثرةُ اللقاءات مفضيةٌ في مراتٍ للتشاحن والتباغض، وفي مـــراتٍ تقع على ما لا يعجبك، وتتكشَّـــف لك



أســـرارٌ لا تُســـعدك، وتأتي حوادث الزمان بما يستلُّ مباهجَ هذه الصحبة من قلبك ومشـــاعرك، وما تزال تَضمُر مع الأيام حتَّى تصبحَ ذكـــرى لا قيمة لها في واقعك، وإن بقيتْ فهي في أزهى صورها ومباهجها لم تَعُدْ تصنـــع ذاك البريـــق في قلبك، ولا تشـــاكل روحك، ولا تضفي عليك جديدًا في مستقبلك.

ولعلك تســـأل: هل أنت تحدِّثني هنا عن الصحبة وأثرِهـــا، أو عن القرآن؟ ما علاقـــة الصحبة بالقرآن؟ ولِمَ هذا الحديث الطويل عن ندماء الطريق وحديثك عن صناعة الدهشة في القرآن؟!..

وأعترف أني تأخرتُ عليـــك، ولكن تعال معي؛ لتعرفَ تفاصيل القصة من جديد.

- **تحدَّث نبينا ﷺ عن صاحـــبٍ ونديمٍ وخلٍّ من نوع آخـــر، وأبان أنَّ تلـــك الصحبـــةَ مفضيةٌ لأحلام الداريـــن**، وصاحبك الجديد لا يحتاج منك شـــكلًا، ولا صـــورة، ولا هيئـــة، وإنمـــا يحتاجُ إلـــى قلبك ومشاعرك، ووقتك وأمانيك فحسب، ثم هو سيتكلَّف لك بصناعة كلِّ شيء.

- هل تخيَّلتَ يومًا أن يكون القرآن صاحبك، ونديمك، وخلَّك الوفي، وأنيسَك في حياتك وفي قبرك، وفي ساحات القيامة؟!..

هل تخيَّلت أنَّ صحبةَ القرآن، وبذل الأوقات فيه والبقاء معه، مفضٍ بك إلى أفراحٍ لم تكن لك على بال؟!..

هل كنت تظنُّ - مجرَّدَ ظنٍّ - أنَّ صرف أوقاتك في كتاب الله تعالى موجبةٌ لك بمُلكٍ لا يبلغه إلَّا صاحب القرآن؟!..

إن كنت لا تدرك ذلك، ولم يبلغ فهمك ذلك المعنى، فتعال معي لنقرأ أنا وأنتَ ثلاثةً من النصوص التي تحدَّث بها نبيك ﷺ عن صحبة القرآن، ولعلك تقف من خلالها على الحياة.

١ - قال ﷺ: «**يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتقِ ورتِّل كما كنت تُرتِّل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آيةٍ تقرؤها**»[(١)].

(١) أخرجه أبو داود (١٤٦٤) والترمذي (٢٩١٤) والنسائي في الكبرى (٨٠٥٦) وأحمد (٦٧٩٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

٢ ـ وقال ﷺ: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»[١].

٣ ـ وقال ﷺ: «الصيام والقرآن يشفعان للعبدِ يوم القيامة»[٢].

• ولو أنك قـرأتَ هـذه الأحاديث الثلاثـة بعقلك ومشـاعرك، وتأمّلت في ألفاظها، لم تخطـئ عينُك هذا اللفظ المتكرر: «**صاحبَ القرآن**»، وما كلُّ علاقةٍ مع كتاب الله تعالى مفضيةٌ بك إلى هذا النوع من الصحبة! وما كلُّ جهدٍ مبذول يُمكّن صاحبه من بلوغ الغايات الكبار!..

ـ **فإن قلت**: كيف لي أن أبلغَ هذا المعنى، وأحقق هذه الصحبة، وأبلغ تلك الأماني التي تمنحها صحبة القرآن؟.

فيقال لـك: كما تفعلُ مع صديـق عمرك، ونديم أيامك، وخليلك، لا فرق.

صحبةُ القرآن أن تعيشَ معه، لا تكاد تفارقه؛ تلاوةً وحفظًا، وتدبرًا واستشفاءً، فهو كلُّ شيء في حياتك،

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤).

(٢) أخرجه أحمد (٦٦٢٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

فيُصبح خِلّك ونديمك، في ليلك ونهارك، حتَّى إنك لتُعْرَفُ به من خلال تلك الأوقات التي تقضيها معه، ولو أنك تأملتَ في سِيَرِ المعروفين من السَّلف بصحبة القرآن؛ لرأيتَ كم من الأوقات والمشاعر التي صرفوها في الطريق، إلى أن أصبحت الصحبةُ وصفًا لازمًا لهم مع الأيام.

ـ قد تكون صحبةُ فلان من النَّاس للقرآن من خلال إدمان قراءته في كلِّ وقتٍ وحين، وقد تكون تلك الصحبةُ من خلال وردٍ ثابت، كجزءٍ أو نصف جزء، لا يتخلَّى عنه في يومٍ من حياته إلَّا لعارضٍ من العوارض، وقد تزيد ـ تلك الصحبة ـ في حياة صاحبها، وتقف على بعض منازلها ومشاهدها في حياته، حين تريد أن تستشهدَ بآيةٍ من كتاب الله تعالى، فتضيع منك، فإذا بفلانٍ من النَّاس يفتحُ لك ما عسر عليك، ويقرِّب لك طريقها، ويمكِّنك من معرفتها، وإن شئت أن يقولَ لك في أيِّ سورةٍ وصفحةٍ في المصحف أخبرك بها دون عناء، وهذا المشهدُ بعض مشاهد الصحبة.

• وفي مراتٍ أخرى تسمع حديثًا من أحدهم عن تجارب وممارسات، وطرائق كثيرة ومتنوعة، عن

حفظ كتاب الله تعالى، فلا يخطئ حدسك أنه جرَّب كلَّ ذلك، وأنَّ هذه التجارب مجرد صورٍ لممارسات صنعتها صحبةُ القرآن في واقعه مع الأيام.

ـ قال لي أحدهم ذاتَ مـرَّةٍ عن فلان من النَّاس، وهو يحكي هذا النوع من الصحبة: كان له وردٌ ثابتٌ من كتاب الله تعالى، وكان إذا أخطأ في تلاوته، وأشكل عليه الطريق، لا يسمح لنفسه أن يفتح المصحف، وما يزال يُكرر ويبدأ ويعيد، ولو بقي ساعات حتَّى يفتح الله عليه ما يزيل ذلك الإشكال.

ـ وسُئل آخر في لقاء تلفزيوني: كيف وردك من كتاب الله تعالى؟ فقال: لي خمسون سنة ما فتحت فيها المصحف إلَّا لشيء نادر جدًّا.

ـ وتواصل معي صديقٌ يسألني عن تنظيم وقته، وفي ثنايا السؤال إذا به يقول: وردي من القرآن كل يوم عشرةُ أجزاء، وهي لا تأخذ معي وقتًا طويلًا، وذلك لأني أتلوها في المسجد والسيارة والطريق، وفي كلِّ مكان.

وهذا غيضٌ من فيض، وقليلٌ من كثير، ولو لم يكن من الصحبة إلَّا هذه المعاني، لكان كافيًا ومدهشًا.



من مشاهدِ السَّطوة

• كم هي المرات التي دخلتَ فيها بيتًا من بيوت الله تعالى، وإذا بك تســمع لذلك الإمام، وهو يرتِّل كتاب الله تعالى، ويجري شجونه في مشاعرك، ويبعثُ في قلبــك الأشــواق، فإذا بــك لا تملــك إلَّا تلك الدموع، التي جادت بها عينــاك برهانًا على ما صنع ذلك القرآن في قلبك، وقد بقيت زمنًا طويلًا تشتهي بعضًا من تلــك الدموع، فلــم تجدهــا ولا مرةً في عمرك، وإذا بالقرآن يســتلُّها من عينيــك في لحظة، ويجريها على خَدَّيْك من خلال سماع بضع آيات.

• أمَا رأيــتَ كافرًا ملحدًا، لا يعــرف ربًّا ولا يقرُّ بإله، ولا يعرف عن الإســلام شــيئًا، وقلبه أقسى من الحجارة، مــا إنْ يســمع مقطعًا من كتــاب الله تعالى بصوت قارئ مدهش، إلَّا وتتحدَّر الدموع على وجنتيه، حتَّى أجرى فيها خطوطًا، ومعالم تصلح للذكريات؟!

كم هم الذين عاشوا في الكفر والإلحاد سنوات طويلة



جدًّا جاوزت الخمسين والستين، ثم في لحظةٍ عارضةٍ طَرَقَ القرآن قلوبهم، وتخلَّل إلى مشاعرهم، فألقى فيها الحياة، وعادوا مسلمين حنفاء لله!..

- روى البخاري في «صحيحه» قصة أبي بكر الصديق رضي الله عنه قبل الهجرة، حين اشتدَّ أذى المشركين، لمَّا حاصروا بني هاشم وبني المطلب في شعبِ أبي طالب، فحينذاك أذنَ النبيُّ ﷺ لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة، فخرج أبو بكر رضي الله عنه يُريد الهجرة إلى الحبشة، فلقيه الحارث بن يزيد (ابن الدغنَّة) وهو سيد قبيلة القارة، وهي قبيلة لها حلفٌ مع قريش، وتعهَّد أن يجير أبا بكر رضي الله عنه، ويحميه حتَّى يعبد ربَّه في مكة، يقول الراوي: فطفق أبو بكر رضي الله عنه يعبد ربَّه في داره، ولا يستعلن بالصلاة، ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدًا بفناءِ داره وبرز، فكان يُصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيتقصَّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكَّاءً لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين.

وإذا قـرأت قولـه: (يتقصَّف نسـاء المشـركين وأبناؤهم) بمشـاعرك، **أدركت ما يصنـع القرآنُ في قلوب المشركين فضلًا عن غيرهم**، ومعنى التقصُّف: أنهم يزدحمون على بيته ومسـجده، يسـمعون لهذا القرآن، ويُدهشـون بجماله، ويقبلون عليه متشوِّقين لأسراره، ويلقون به ومن خلاله كلَّ شيء.

وإذا علمتَ أنَّ قلوب أهل الشـرك والضلال يميد بها القرآن إلى أن تخرج من بيوتها وتتهادى إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه، وإلى مسـجده؛ من أجـل أن يطرق أسـماعهم، أدركتَ ما يصنـع القرآن فـي النفوس، وكيف يتسلَّل إلى الأعماق، ويحرك المشاعر، ويصنع فيها ألف معنًى للحياة.

- ذكَّرني هذا الموقف بشـيءٍ من تلك الزيارات التي كنـت أزور فيها المسـجونين، وأتحدَّث إليهم، وهم معرضون عن حديثي، لاهـون عمَّا أقول، حتَّى إذا بدأت أتلو كلام الله تعالى، وأتأنَّق في تلاوته، وإذا بهم كالفراشـات التي ترى النور في الظلام فتتهافت عليه، ثم ما هي إلَّا لحظات، فإذا بالدموع خير شاهدٍ على ما صنع القرآن في تلك القلوب!..

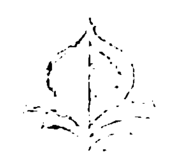
ـ هذه هي السَّطوة التي أخذت بقلوب ومشاعر قريش، وقد خرجت ذات مساءٍ تسمع النبيَّ ﷺ، وهي عصيةٌ متأبيةٌ رافضةٌ للحق، فإذا بالنبي ﷺ يقرأ سورة الانشقاق، فلمَّا بلغ قول الله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٠ ـ ٢١]، خرُّوا سجودًا جميعًا، وعفَّروا جباههم في التراب، وأقبلوا مذعنين، هذا وهم مُصِرُّون على كفرهم، جاحدون لدين الله تعالى، متأبون على الحق، معاندون له، فقط لما خلَّوا بينهم وبين قلوبهم لسماعه، ألقى بهم على الأرض دون شعور!..

ـ وهو ذاته الذي ألقى في قلب جبير بن مطعم رضي الله عنه أيام كفره، وقد كان جالسًا في طرفٍ قَصِيٍّ من رسول الله ﷺ، وهو يتلو سورة الطور، فلمَّا بلغ قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٦]، قال: كاد قلبي أن يطير!.

وهو المعنى ذاته الذي أعاد أناسًا للحياة، وأقبل بجموعٍ غفيرةٍ إلى دين الله من جديد.

• إني لا أتكلَّف في عرض مشاهد هذه السَّطوة على قلبك، ولكني أدعوك ذات ليلة أن تخرجَ إلى مسجدٍ من المســاجد التي حولك، التي مَنَّ الله تعالى عليها بإمامٍ رزقه الله تعالى صوتًا نديًا، ويعرف ما يقرأ من كتاب الله تعالى، ثم حَدِّثْني بعد ذلك عن القشــعريرة التي هَزَّتْ كيانك، وألقت الروع في روحك، وتملَّكت من نفسك، وخفق لها قلبُك مرارًا، ثم أبِنْ لي عن الفرق الكبير بين دخولك المسجد أول وهلة قبل السماع، وبين خروجك منه وقد امتلأت مشــاعرك وهجًا من كتاب الله تعالى، وأجزم أنك عاجزٌ عن الوصف، ولو حاولت.

لا تتكلَّف في البحث، يكفيك مــن ذلك أن تمرر أصبعــك فقط على جهــاز جوالك، وهــو يعرضُ لك جموعًا من القــرَّاء لكتاب الله تعالى، ثم ألقِ ســمعك ووجدانك ومشاعرك إلى تلاوةِ أحدِهم، وأنا جازمٌ بأنه سيبدد ظلام قلبك، ويسقي مشــاعرك، وأعرف تمامًا، وكأني أراك هــذه اللحظة، أنك ســتتنهَّد طويلًا، وفي مرات كثيرة تحاول أن تعيد إليك أنفاسك، جرِّب، ثم حَدِّثْني عمَّــا لقيت، وإن كنتُ متيقِّنًــا أن الفارق بينك قبل سماع القرآن وبعده، فرقٌ لا تحدُّه المسافات.





من مشاهدِ الجلال

• قال لي ذات يوم: كنتُ أرى **الجبال**، وأستمتع بمشاهدتها، وتأسرني قوتُها وثباتُها، ولكنها في الحقيقة لم تأخذ مني ذاك التفكير الذي يجعلني أنشغل بها يومًا من الدهر، وإن كنت أقرأ في كتاب الله تعالى، وأسمع في المجامع العامة قراءة الإمام في كلِّ أسبوع، وهو يردد: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٩]، ولكن ذلك لم يحرِّك فيَّ ساكنًا في يومٍ ما!.

وفي الفترة الأخيرة مع ثقافةِ المشي بالذات، صرتُ في مراتٍ كثيرة وجهًا لوجه مع تلك الجبال، وتأتي مسابقات كثيرة لتسلُّقها، ورأيتُ ما فيها من آيات، وزادتني تلك التجربة عُمْقًا في معرفة بنائها، وشدَّتها وصلابتها، وأنها آيةٌ تدعو إلى تفكُّرٍ وتأمُّلٍ وتدبُّر، ثم ما لبث أن تلاشى ذلك المعنى من نفسي، وذهب من مشاعري، وعاد مع

الأيام وطول الإلف إلى شيءٍ لا يكاد يمرُّ بخاطري في يومٍ من الأيام.

ثمَّ في يومٍ ما، وفي لحظة هدوءٍ وراحة بالٍ، وفراغٍ من شغل، فتحت كتاب الله تعالى من جوالي، ووقعت على **سورة الرعد**، وبدأت أقرأ، وفجأةً ومن غير ميعادٍ وقعت على حقيقةٍ ملهمة! حقيقة لم أقف عليها من قبل، وما سبق أن حُدِّثت بها على كثرة ما سمعت، حقيقة من نوعٍ مختلف جدًّا، وتحتاج إلى إعادة قراءة، أو هي بالأحرى تحتاج إلى سماعٍ متكرر، حتَّى ترى الآثار التي تُحْدِثها في قلبك ومشاعرك، إن كان للإنسانِ قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد!.

توقفت عن إتمام الورد، وبقيت أتلوها وأردِّدُها مرارًا، وطال بي الوقت، وأنا لا أتخيَّل تلك الحقيقة التي تُدلي بها تلك الآية، ثم قررت أن أترك التلاوة، وأخلي بيني وبين هذه الحقيقة سماعًا، وبقيت كذلك زمنًا أسمعها من أفواه أعذب القرَّاء، وكأنما كل واحدٍ



من أولئك يمعن في تعميق هذه الحقيقة في قلبي، من غير معرفةٍ لمعانيها، ثمَّ تساءلتُ: هل أنا وحدي الذي لا أعــرف هذه الحقيقــة، رغم طول عمــري، وكثرة تلاوتي، أو أني مع الكثير في قطــار الغفلة عن هذا المعين العظيم؟!..

ثم تخلَّصْتُ في النهاية من هذا التساؤل العارض، وألقيتُ به جانبًا عن فكري ومشاعري، وبدأت أطَّلع على الحقيقة بنفسي، قلت: لم لا أبحث عن تفسيرها، وأنقِّب عــن معانيها، وأســمع لمَن تدبَّرهــا، فلعلَّ الحقيقــة تنجلي، وأعــرف ما كُنت أجهــل من تلك المعاني فيها؟..

ـ قاطعتُه ســائلًا: ما الآية التي أخــذت منك هذا التفكير العميق، واستقطعت منك هذا الزمن الطويل؟ لقد شوَّقْتَني وحيرَّتْنَي في الوقت ذاته!..

ـ تنهَّد قليــلًا، ثم مدَّ يده إلى كتــاب الله تعالى، وألقى بالآية بين عيني: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]!.

وإذا باللحظة تســتغرقني، وتهز مشــاعري تلك الحقيقة، وتستوقفني تلك الآية، ويذهب تفكيري في تصور المشهد كاملًا لو كان كما أفهم من الآية كيف يكون؟!..

وبقيت أتساءل: ما المعنى الذي يريده الله تعالى؟ ما الحقيقة التي يبعثها القرآن في نفوسنا هذه اللحظة؟ ما معنى الآية؟ وإلى أيِّ شيءٍ ترمي؟..

وحين رآني وقد استغرق شعوري ذلك الموقف، وتزاحمت الخواطر والمعاني في نفســي، كرَّ عليَّ في الوقت ذاته بتفســيرها، فأدركتُ الحقيقة كأنها رأي عين!..

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، والمعنى: لو كان من صفاتِ كتابٍ من الكتب الإلٰهية أن تُزال به الجبال من أماكنها، وتشقَّق به الأرض فتعود عيونًا وأنهارًا، أو يُقرأ منه على الموتى فيعودوا أحياءً، لكان هذا الكتاب!.

وصدق الأول حين قال: **قطعــتْ جهيزةُ قولَ كلِّ خطيب!.**



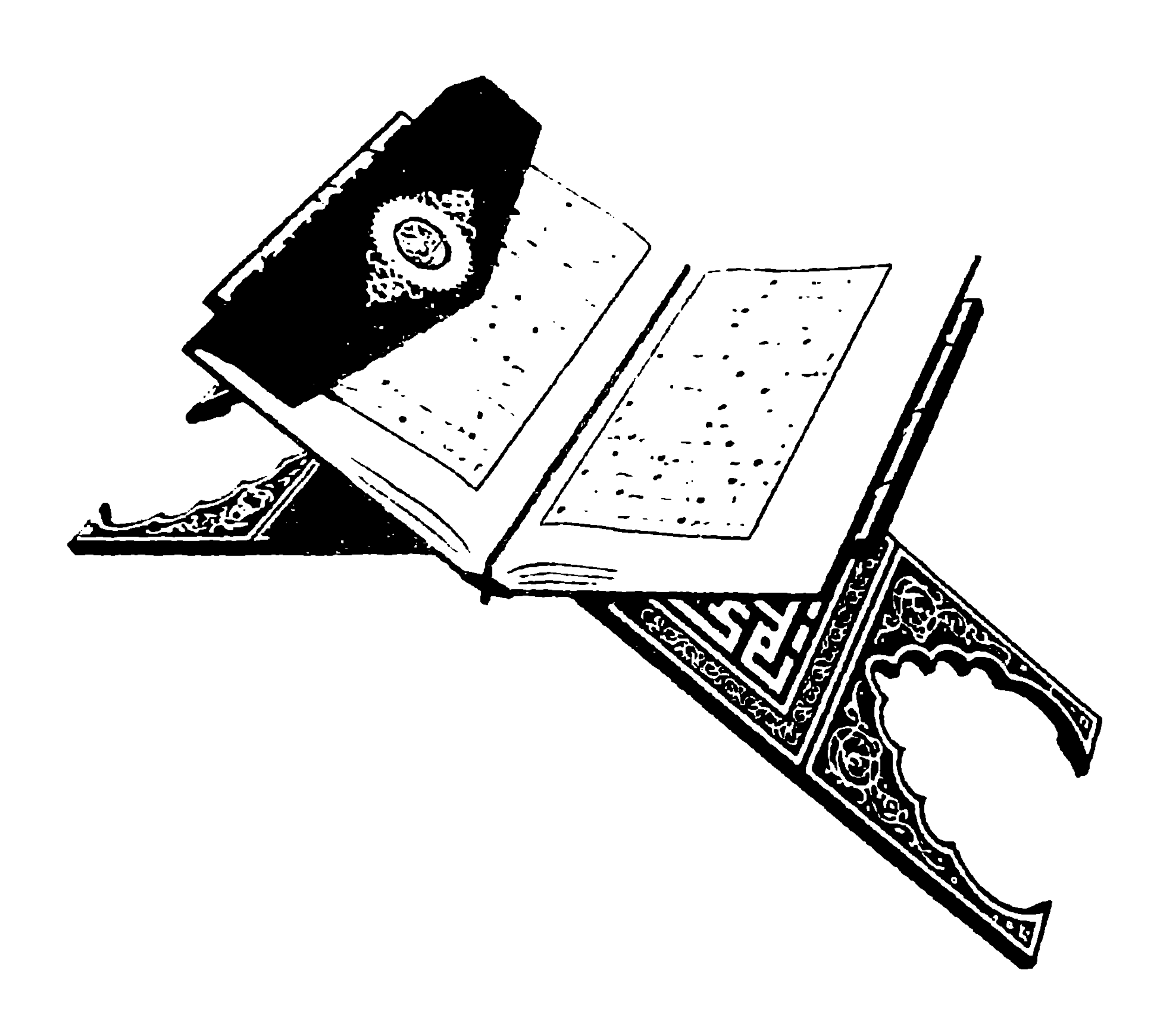
ـ **ثــم قال لي**: هــل تعذرني الآن علــى كلِّ تلك المراحل التي مرَّتْ بي؟ هل تعذرني في اســتغراقي وذهولي فــي تلك اللحظــات التي عشــتُها مع هذه الحقيقة؟..

ـ **فقلت له**: إي والله، الآن يا صاحبي عذرتُك في كلِّ شيء! وعذرت نفسي أن تاه بها التفكير، وغمرها شعور الحيرة، حتَّى أفاقت من جديد.

• **يا الله!.. هذا القرآن بما أودع الله تعالى فيه من قوةٍ وبيان؛ لــو كان من صفاتــه: أن تُزال به هــذه الجبال لأزالها، ولــكان أقدر على تشــقُّق الأرض لتعود عيونًا وأنهارًا، ولو قُرئ على الموتى لعادوا أحياء! فكيف بي وبك ونحن نتلو كتاب الله تعالى في كلِّ وقتٍ وحين!..**

لو لم يكن في هذه الحقيقة القرآنية إلَّا أنها تبعث في قلوبنا الحياة، وتدلنا على قــدر كتاب الله تعالى، وتُوْقِفُنا على بعض مشاهد صناعته في الكون لو شاء الله تعالى، فكيــف لو وهبنــاه قلوبنــا، وأقبلنا عليه بمشــاعرنا، وبذلنا له أوقاتنا، وسألنا الله تعالى طويلًا أن يمنَّ علينا بالحياة من خلال معانيه؟!...

لعلك تسأل نفسك، وتكرر عليها السؤال، وتقلِّب صور هذا السؤال على مشاعرك: إذا كان هذا القرآن أقدر على تصديع الجبال لو أُنْزِل عليها، فكيف بقلوبنا ومشاعرنا وأرواحنا؟! وهو بين أيدينا في كلِّ وقتٍ وحين، وصدق الله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]!





قال الله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، قال: أي: كثيرٌ خيره، دائمٌ بركته ومنفعته، يبشِّرُ بالثواب والمغفرة، ويزجرُ عن القبيح والمعصية، وقد جرتْ سنةُ الله تعالى بأنَّ الباحث عنه والمتمسِّك به يحصل له به عزُّ الدنيا، وسعادةُ الآخرة، وأنا قد نقلتُ أنواعًا من العلوم النقلية والعقلية، فلم يحصل لي بسبب شيءٍ من العلوم من أنواع السَّعادات في الدِّين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم (يعني التفسير).

الرازي رحمه الله تعالى





حديثٌ عن البركة

• كم مرةً قرأتَ هذا المعنى في كتاب ربك تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [صٓ: ٢٩]؟ وكم مرةً في حياتك تأملتَ ما يُخْبِرُك به القرآن: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]؟ ألا سألت نفسك يومًا من أيام دهرك: ماذا يريد الله تعالى بهذا الخبر في كتابه؟ لماذا يكرره؟ ما القضية التي يريد الله تعالى أن يلفت إليها الأبصار، ويعيد لها القلوب في كتابه تبارك وتعالى؟.

ـ أمَا جرى حوارٌ بينك وبين مشاعرك في يومٍ ما، وسألتَها: **ما البركة؟ وما مظانُّها؟ وما الطريق إليها؟** في حين ترى أناسًا تطول أعمارهم، ولكن لا بركة في ذلك العمر، ويكثر أولادهم، ولا ترى مباهج لتلك البركة، ويزيدُ مالهم، ولا يكادون يشبعون منه، وترى لديهم كلَّ شيء، وهم في الوقت ذاته أحوج الناس لكلِّ شيء!.

لقد كان بعض المحتاجين لبناءِ مســتقبلهم يغامر في ســبيل ذلك، فيتركَ مَقَرَّ عمله القريــب إلى بيته وأســرته ومجتمعه، ثمَّ يغادر إلى بــلاد نائية بعيدة، يتغرَّب فيها، وينأى عن أهله وموطنه، وكل ذلك لأنَّ من نظام العمل أن تكون السَّنَة في تلك الديار البعيدة بسنتين في الخدمة، فيقضي جزءًا من عمره في تلك الديار، وهــو نوعٌ مــن الاســتثمار الأمثــل للزمان والمكان، وهذا الوعي ينبغي أن يكون أشــد وضوحًا وأكثــر وقوعًا فيمــا يُثري الآخــرة، ويُصلح شــأنها لصاحبها في مستقبل الأيام.

ـ البركة ما تكون في قليلٍ إلَّا كثَّرته، ولا تأتي على ضيِّق إلَّا وسَّعته، ولا تخالط شيئًا إلَّا عظَّمته وجمَّلته، وكم من إنســانٍ عنده وظيفةٌ بســيطة خالطتها البركة، ففتح الله تعالى عليه من أسرار توفيقه، وأغناه من خلال تلك الوظيفة، وآخــرُ لديه ولد أو ولــدان، أجرى الله تعالى على أيديهما مصالح الدَّارين لأبويهما، في حين أنَّ كثيرًا من الأســر تبلغ الواحدة منهن عشــرة أفراد، ولكن لا شــيء من البركة في تلك الجموع، وحدِّث عن هذا الباب بما تشاء، فلن تصل إلى منتهى له.

• وإذا تأمَّلت قول الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، كان من توفيقك وكمال عقلك ووعيك أن تنيخ مطاياك بين أفياء هذا الوحي، فلعلك بالغٌ منه ما لم يكن لك في الحسبان.

فإن قلت: ما البركات التي يمكن أن يصنعها القرآن لصاحبه؟ هل هي بركاتٌ حسية ملموسة، أو هي بركاتٌ معنوية فحسب؟.

ولعلي في هذه الأسطر **أفتح لك مشاهد من هذه البركة، وأدلك على مواطنها من كتاب الله تعالى، وأخلي بينك وبين مرابعها**، وأنت بعد ذلك بالخيار أمام تلك المعاني الكبار.

- **أول البركات** في كتاب الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]: **بركةٌ عامةٌ مطلقة** تكون في عمر الإنسان ووقته وفكره، ومفاهيمه وتصوراته عن الحياة، وبركةٌ في بيته وأسرته وولده، وبركةٌ في رزقه ووظيفته، وتكون

في كلِّ شـــيء من حياته، وهي تزيد وتنقص بحسب علاقتك به وإقبالك عليه.. وإن الله تعالى لأكرمُ من أن يرى عبده مقبلًا على كتابه مجلًّا له، معظِّمًا له، قائمًا به تــلاوة وتدبرًا واستشـــفاءً، ثـــمَّ يتركــه الله تعالى ولا يكرمه!.

- **ومن تلك البركات: أنه يجعل صاحبه المقدَّم في أجلِّ المواقف وأعظمها في شــريعة الله تعالى، حين يكون هو أحقَّ الناس بإمامة المصلين**، ولا يحق لأحدٍ من الحاضرين أن يتقــدَّم على حافــظ كتابه تعالى، لقوله ﷺ: «**يؤم القومَ أقرؤهـــم لكتابِ الله تعالى..**»[1] وفي هــذا من مشــاهدِ الجلال والإكــرام والتقديس لحامل هذا القرآن ما فيه!.

- فكيف بــك، وأنت تقف على مشـــهدٍ آخر من مشاهدِ الجلال والتكريم والتقديس لحافظ كتاب الله تعالى، حين يقول ﷺ: «**إنَّ من إجلالِ الله إجلال ذي الشيبة المسلم، وحافظ القرآن**»[2]!.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧٣) من حديث عقبة بن عمرو رضي الله عنه.
(٢) صحيح أبي داود (٤٨٤٣) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ـ فكيف بك إذا عرفت أنَّ نبيَّك ﷺ في يومِ أُحُد أمر بأن يُدفن الشهداء الاثنان والثلاثة في القبر الواحد؟! فما الذي جرى في تلك اللحظة؟ وما الخبر الذي انتشر ويحتاج إلى إعادة قراءة مرتين وثلاثًا وعشرًا؟

لقد كان نبيُّك ﷺ يُوجِّه في تلك اللحظة، وصحابته يجمعون بين اثنين وثلاثة في القبر الواحد، **بأن يكون أول من يُنزل في القبر أكثرهم حفظًا لكتابه تعالى**، وليس لذلك معنى إلَّا أنها لفتةٌ مدهشةٌ في قيمة ما يحمل حافظُ القرآن من معنى! وهي رسالةٌ أن يكون مُقَدَّمًا في كلِّ شيء.

ـ ومن تلك البركات: بركاتُ تعدُّدِ وجوه الانتفاع به، فمنه ما يُثري أفكارك ومفاهيمك، ومنه ما يُحيي قلبك ومشاعرك، ومنه ما يُوقظ قلبك وضميرك، ومنه ما يعرضُ لك طُرُقَ الخير والضلال، ويُبَيِّن لك الطريق الأمثل والأوضح والأقرب إلى نجاحك، ومنه ما يُبَيِّن لك عن وشائج العلاقة بينك وبين الآخرين، ومنه ما يعرضُ الدار الآخرة كأنك تراها رأي عين،

ومنه شــفاءٌ لأمراضِ الشــهوات والشــبهات، ومنه ما يُجْرِي لك سُننَ الله تعالى في الأرض، ويعرض لك تاريــخ الماضين في صــورٍ تحمل مشــاهد وذكرى للمتأملين في الحياة.

• **وقد عدَّ جمعٌ من أهل العلم أنَّ مواقع البركة في القرآن سبع:**

١ ـ بركةٌ فيْ قراءته ﴿الٓمٓ﴾ حروف [البقرة: ١].

٢ ـ وبركــةٌ فــي ســماعه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

٣ ـ وبركةٌ فــي تعلُّمه: **«خَيْرُكم مــن تعلَّم القرآن وعلَّمه»**[1].

٤ ـ وبركةٌ في العمل بــه: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

٥ ـ وبركةٌ في التذكُّر والاتعاظ به: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [صَ: ٢٩].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٧) عن عثمان رضي الله عنه.

٦ ـ وبركةٌ في الاستشفاء به: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

٧ ـ وبركةٌ في الحكم به والتحاكم إليه: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]. وحكمه ما جاء في كتابه تعالى.

• **وخاتمة القول: من أقبلَ على القرآن، أقبلَ الله تعالى عليه، وصنع له كلَّ شيء.**

ـ وقد قال بعض السَّلَف: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات!.

ـ وقد أوصى إبراهيم المقدسي رحمه الله تعالى تلميذه عباس بن عبد الدائم، قائلًا له: أكثرْ من قراءة القرآن، ولا تتركه، فإنه يتيسَّر لك الذي تطلبه على قدر ما تقرأ. والله المستعان!.

ـ وقد قال أحد المعتنين بكتاب الله تعالى: والله ما رأيتُ، ولا سمعتُ أحدًا صَاحَبَ القرآن بصدقٍ إلَّا أكرمه الله!.

وقال: جاءني ذات مرة أخٌ وَضْعُه المادي سيِّئ جدًّا، وعرض عليَّ مشكلته، وكان عنده بنات، فقلتُ



له: عليك بالقرآن، اصدق في تعليم بناتك لكتاب الله تعالى، وسيجري الله تعالى لك التوفيق فوق تصوُّرك، وقلتُ له: لا تسـألني كيف؛ لأن هـذا رب يرزق من حيث لا تحتسـب. قال: وما مضى عليه سوى بضعة أشـهر، فإذا به يتصل بـي، ويقول: أخبـرك بأن الله أكرمنـي، وأراني أثر القرآن في حياتـي عاجلًا، كان لأبي عمٌّ توفي، وليس له وارث إلَّا أبي، وترك عمارة أربعة أدوار، فصارت العمارة لأبي، فقال لي: أعطيك دورين، دور تسـكن فيه أنت وعيالك، ودور تجعله دارًا لتحفيظ كتـاب الله تعالى، وقـد كنتُ لا أملك شيئًا، فصنع الله تعالى من خلال كتابه كلَّ شيء.

• **ومـن تلـك البـركات: بـركاتٌ تلحقك في آخرتك**، ففـي «جامـع الترمذي»: مـن حديث ابن مسعود ﵁، قال: قال ﷺ: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسـنة، والحسنة بعشـر أمثالها، لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن (ألف) حـرف، و(لام) حرف، و(ميم) حرف**».

وإذا كانـت هذه بركاتـه العاجلة من الحسـنات المدَّخرة بين يديه تعالى يوم القيامة، فكم من حسناتٍ

تجري في ميزان أعمالك بقراءة صفحة أو سورة أو جزء أو ختمة كاملة؟!..

- تعال معي لنجري حسابًا عاجلًا لتلك البركات التي ينالها صاحبها من خلال تلاوة كتابه، تلاوة مجردة، وذلك بالنظر إلى مصحف مجمع الملك فهد رحمه الله تعالى، تجد أن الصفحة الواحدة فيها خمسة عشر سطرًا، ومتوسط الأحرف في السطر أربع وثلاثون حرفًا، والحرف بحسنة، والحسنة بعشر أمثالها، فيكون على هذا في الصفحة الواحدة من كتاب الله تعالى خمسمئة حرفٍ تقريباً، مضروبةً في عشر، فتكون النتيجة خمسة آلاف حسنة، والصفحة لا تأخذ منك سوى دقيقة واحدة، فهل تخيلت ما تجلب لك الدقيقة الواحدة في عمرك من حسنات؟!.

وإذا كان ذلك في الصفحة الواحدة، فكيف بالختمة الواحدة لكتاب الله تعالى؟ ستجد أنها ثلاثة ملايين حسنة، فإذا كنت تختم في ثلاثة أيام، أو عشرة أيام، كم تتخيَّل من الحسنات في الشهر الواحد، فضلًا عن العام، فضلًا عن عمرك كله؟.. وهذا كله في

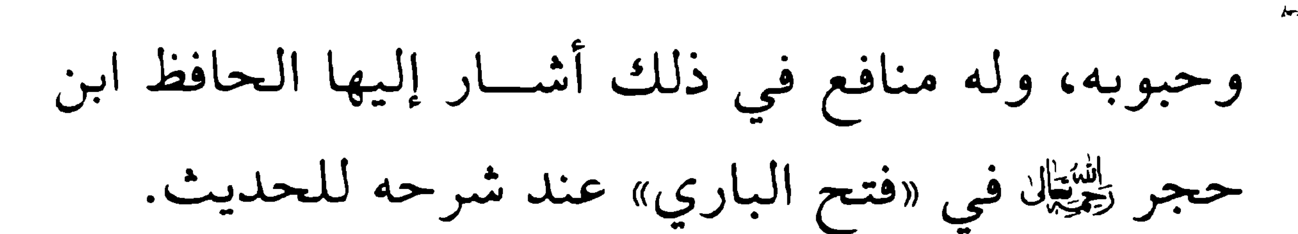
حساب الحسنة بعشر أمثالها، فكيف إذا كانت المضاعفة إلى سبع مئة ضعف؟!.

وانظر في النهاية أين موقعك من هذه البركة؟ كم تقرأ في يومك من كتاب الله تعالى؟ هل لك وردٌ محدَّد مع كتاب الله تعالى كلَّ يوم؟ أم لم يَرْقَ هذا المعنى بعد إلى قلبك ومشاعرك، وما زال معرفةً مجردة؟!..

ـ **وإذا كانت تلك البركة في العدد، فتعال لترى كم هي البركة في المعنى،** ففي «الصحيحين»: من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«مَثَلُ المؤمن الذي يقرأ القرآن، كمثل الأترجَّة؛ ريحُها طيِّبُ، وطعمُها طيِّبٌ، ومَثَلُ المؤمن الذي لا يقرأ القرآن، مثل التمرةِ؛ لا ريحَ لها، وطعمُها حلوٌ».**

فتخيَّل هذا التقسيم بين شخصين، كلاهما مؤمن بالله تعالى، غير أن الأول فَقِهَ صحبة القرآن، والآخر غفل عنها..

والأترجة: ثمرٌ حلو يشبه البرتقال، أو هو من فصيلته وأكبر منه قليلًا، وقيل: يُنتفع بأكله، وقشره،



وحبوبه، وله منافع في ذلك أشار إليها الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «فتح الباري» عند شرحه للحديث.

وفي «الصحيحين»: من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مثلُ الذي يقرأُ القرآنَ وهو حافظٌ له، مع السَّفَرةِ الكرامِ البررةِ، ومثلُ الذي يقرأ، وهو يتعاهده، وهو عليه شديدٌ فله أجران**».

وفي «صحيح مسلم»: «**الماهُر بالقرآنِ مع السَّفَرةِ، الكرامِ البررةِ، والذي يقرأُ القرآنَ، ويَتَتَعْتَعُ فيه، وهو عليه شاقٌّ له أجرانِ**».

وأجزمُ أنك بحاجةٍ إلى إعادة قراءة هذين الحديثين مرارًا، حتَّى تبلغَ من قلبك ومشاعرك ما يصنعُ لك الحياة.

تخيَّل أنك حين تقرأ القرآن، وأنت ماهر به، فإن منزلتك هي منازل ملائكةِ الله تعالى، لا فرق: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة**»!.

وتخيَّل في المقابل أنك من أولئك الذين قلَّ حفظهم لكتاب الله تعالى، ولم يبلغوا تلك الآمال،

ولكنهم يبذلون ويجهدون ويحاولون بكلِّ ما يملكون، ويجدون في قراءته كدًّا لمشاعرهم، فيخبر ﷺ: «**والذي يقرأ القرآن، ويتتعتع فيه، وهو عليه شــاق له أجران**»، وإذا كان أجر التابع المصلِّي على الجنازة قيراطًا كجبلِ أُحد، فما بالك بأجرين للقارئ لكتابه تعالى، والمقبل عليه من خلال هذا الوحي!.

• **ومن بــركات هذا القــرآن: أنه يغشــى صاحبه بالتوفيق في الدارين**، فيكرمه بمنازل الجلال والإكرام والتقديس في الدنيا، ويُعْلي ذِكْرَه في مشاهد الآخرة، ويرضيه حتــى يقف في أعلى درجــات الجنان، كما قال ﷺ: «**يُقال لصاحب القرآن يوم القيامة: اقرأ وارتقِ في درجاتِ الجنانِ، ورتِّلْ كما كنتَ ترتِّلُ في الدنيا، فإنَّ منزلتَك عندَ آخِرِ آيةٍ تقرؤها**».

فإذا أُضيفت إلى ذلك بركات الوقت والعمر، كان ذلك ممَّا يفوق تصوُّرَك وحســابَك، وكم هي بركات الرزق التي يفتحها الله تعالى لحافــظ القرآن؟ فضلًا عن الراحة والسعادة والطمأنينة، التي تجري فصولها المدهشة لحافظ كتاب الله تعالى في كلِّ وقت وحين.

فكيف إذا نظر الإنسان في بركاته في الدار الآخرة؟ وقرأ في هذا المعنى قوله ﷺ: «**اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه**».

• **وإني على يقين أنه مهما شُرح لك من تلك المعاني، فقول الله تعالى:** ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، **أجلُّ وأدهش من كلِّ ما يُقال عن آثاره في حياة الإنسان، والله المستعان!.**



بعثُ الأرواح

• حَدِّثْني عن قلبك، عن مشــاعرك، عن روحك، عن خلجات نفسك، وأنت تقرأ كتاب الله تعالى! قُل لي: بِمَ تشعر في تلك اللحظات التي تقرأ فيها كتاب الله تعالى؟ بِمَ تحسُّ وأنت تستمع إلى شيءٍ من آيات ذلك القرآن؟.

ـ ماذا لو كان من عادتك كلَّ صباح أن تستمع إلى كتــاب الله تعالى من قــارئٍ يُثْري مشــاعرك، ويبثُّ شجون معانيه في قلبك ووجدانك، وقرأَ لك ذات يوم قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣١]، ثمَّ جرى في مشاعرك أنك واحدٌ من هؤلاء، على طريق الحقِّ والثبات، والله تعالى يحكي لك النهايات التي ستلقاها يومًا من أيام عمرك؟!.

ـ قُل لي: لو كُنتَ تُعاني مرةً مضض الاستقامة على دين الله تعالى، وقد أعياكَ الطريق طولًا، وألهبتْ نفسَكَ الحسراتُ، وشاهدتَ انصرافَ النَّاس عن دين الله تعالى، وبُعْدَهم عن الحقِّ، وأنت ممسكٌ بعروة هذا الدِّين، ومستوثقٌ منه، ولا تدري ما تصنع في واقعك، أو كيف تصبر على طولِ الطريق؟.. فإذا بك تقفُ على هذه الآيات من كتاب الله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

ثمَّ أعَدْتَ قراءتَها مرارًا، وإذا بالحقيقة التي تنتظرها، والآمال التي ترقبها، والحياة التي تنشُدها، والجمال الذي تشتاق إليه، والنهايات التي تمضُّ مشاعرك من أجلها بين يديك، وأقرب ما تكون إليك!.

ـ تخيَّل أنك في مساءِ يوم، وقد أجهدَ قلبَكَ عناءُ الابتلاء، وعانيتَ ألف مرةٍ من الواقع حولك، وفيه ما يُدمي قلبك، ويجرح مشاعركَ، ويدعوك لترك طريقك، والتخلي عن أحلامك، فإذا بك تسمعُ قارئًا

يأخذ بالألباب: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

فتتنهَّد لِمَا سمعتَ، وتحمد الله تعالى على ما أنت فيه، وتصفو مشاعرك من كدرها، ونفسك من وعثائها، وترى ألف بابٍ للحياة!..

ـ حَدِّثني: لو أنك في صحبةِ صديقٍ من الأصدقاء، وقد ألقيتَ إليه بقلبك، وأصبح جزءًا من وجدانك، وأقنعك بجزءٍ من المفاهيم المخالفة للحقّ، وكلُّ مَنْ حولك مِنْ أقاربَ وأصدقاء مختلفون في صحةِ طريقك، وأنت تنتصرُ لصحبتك، وتذود من أجلها، وتناضل لبقائها، وتُخاصم كلَّ مَنْ يقف في الطريق ذاته، أو

يُشـــكك في صحته، فإذا بك وأنت تفتحُ مذياعَ سيارتك مصادفةً ومن غير قصد، تسمعُ قول الله تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقول الله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۞ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ۞ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

فإذا بالحقيقــة أمامك رأي العيــن، فتنجلي تلك الغشــاوة التي كانت تسـيطر عليك، ويبــدو الحقُّ واضحًا جليًّا، فتعود تتفقَّد صاحبك من أيِّ الصنفين؟ وعلى أيِّ الطريقين؟ وتتخذ قرارًا أملاه عليك كتابُ الله تعالى، ولم تُمْلِهِ عليك العواطف والمشــاعر يومًا من أيام دهرك وزمانك.

ـ ماذا لو أنك تتعبَّد لله تعالــى بالدعوة والإصلاح، وتقــف ناصرًا لدينــك في كثيــرٍ من مواقفــك، وتملأ مســاحات فراغٍ ما كان لها سواك، وتقف على ثغورٍ هي أحوج ما تكون إلى فكرك وجهــدك، وترى في الوقت ذاته الباطل وقد أخذ حظَّه من العلو، وانتصر في مواقف

كثيرة، وما زال يَنْتَفِجُ على الحقِّ، ويمضي في توسيع دوائر الظلام، وإذا بك تقرأ قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

وتسمع في الوقت ذاته تاليًا عذبَ الصوت مرهف المشاعر، يردد قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٠].

تقرأ تلك الآيات، وتسمعها، والحسرةُ تكاد تمزِّق قلبك، والله تعالى يسلي أعظم رسله، ويسليك في الوقت ذاته معه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

فتدرِكُ الحياةَ على حقيقتها، ويُوْرِقُ قلبُك من جديد، وتعود ممسكًا بعنان مشروعك، ومستوثقًا من فكرتك، ومؤمنًا بقضيتك الكبرى في الحياة.

ـ في مراتٍ نهفو للدنيا، ونشتاق إليها، ونرى تنافسَ أهلها فيها، هذا يتحدث عمَّا يملك، وكم في



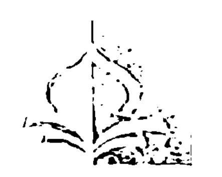
رصيده البنكي من أمــوال، وذاك كم عنده من أبناء، وما وظيفة هذا وذاك، وهذا أميــر وذاك وزير، وهذا فقير والآخــر غني، وهذا جميــل وذاك غير جميل، نقاشٌ شديدٌ في أجواءٍ تنافســية على ما تَجري فيها من أحوال، فــإذا بــك ذات يومٍ وفــي أرجاء ذلك المسجد، وإمامُ الحي يقرأُ تلك الآيات: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

فيصوِّر لــك الصــورة الحقيقيَّــة والنهائيَّة لتلك المعاني التــي تخيلتها يومًــا، وإذا بها مجــرد لهوٍ، ولعب، وعبث، وزينة، وتفاخر مذمــوم، وتكاثر غير محسود، والصورة النهائية لكلٍّ هذه المعاني: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ [الحديــد: ٢٠]. كمطرٍ أصابَ أرض فلَّاح، فأقبل إليها مدهوشًــا، فزرعها فهاج زرعها وتكاثر، ثمَّ صار في النهاية إلى حطامٍ فحسب!

فتعود تتلمَّس أخبار الآخرة، وشجون تلك الدار، وتقيمُ نفسك على منهجِ الله تعالى، من جديد.

• هذه التي حَدَّثْتُكَ عنها صورةٌ عارضةٌ، لم أشأ التقصِّي فيها، ولكنها صورةٌ تمنحك في النهاية وعيًا بما يترك القرآن من أثرٍ في حياتك، وكيف أنه يمكِّنك من إدارة حياتك على وفقِ منهج الله تعالى، ويمكِّنك من بناءِ تصورات مدهشة عن الحياة من حولك.

فكيف لو قرأته آيةً آيةً، وسورةً سورةً، وجزءًا جزءًا حتَّى ختمته؟! وقلت لك حينها: حَدِّثْني: كيف هي الحياة من حولك؟ ما خبرُ قلبك وروحك ومشاعرك؟ قل لي: ما الذي وجدت؟ وما الذي تغيَّر؟ وما الجديد الذي بناهُ القرآن في قيمك وأفكارك ومفاهيمك؟.. وأجزم أنك لن تقدر على عرضِ كلِّ ما لقيت؛ لأن القرآن فوق ذلك بكثير.





شكوى

• تخيَّل لو أنك وقفت أمام جمعٍ من النَّاس في يوم جمعة أو عيد، أو حتَّى في يومٍ من أيام الله تعالى العادية، وإذا بأحدهم ينادي أمام هذه الجموع، ويُشير إليك، ويتَّهمك أنك ظلمْتَه، وسلبْتَه حقَّهُ، وحرمته من أشياء له! وتوجَّهَتْ حينها أنظارُ الحاضرين إليك، ورمقتك أبصارهم، وقد بُهِتَّ في مكانك، فلا تدري ما تقول، ولا تملك ما تدافعُ به عن نفسك تلك اللحظةَ المفاجئة من عمرك!.

ماذا لو شُكِيْتَ، ووصلكَ طلبٌ بحضورك للمحكمة، وحضرت بين يدي القاضي، وأنت لا تدري ما الشكوى؟ وفيمَ؟ ثمَّ لمَّا حضرتَ، فإذا فلانٌ من النَّاس يُقيم عليك دعوى في القضاء، لا تعرف عنها شيئًا، ثم يُطالبه القاضي بالشهود، ثم

يُحضِر شهودًا، فيشـــهدون على أنَّ صاحب الدعوى صادقٌ في كلِّ ما قال، وأنك ظالمه!..

حَدِّثْني عن الأســى الذي يُخامر قلبك، أو الألم والقلــق والخوف الــذي يُخالط مشــاعرك في ذلك الموقف! كيف تستقبل تلك الدعوى، وأنت لا تعرف عنها شيئًا، وقد توافر عليك الشهود؟!..

لعلــك لا تتصوَّر هذا المشــهد، ولــم يجرِ على مشــاعرك من قبل، فتقول: إنَّ هذا فصــلٌ من روايةٍ وهميــة، أو مقطعٌ من قصــةٍ خيالية، أو مشــهدٌ من مسرحيةٍ لم تكتمل فصولها التمثيلية بَعْدُ..

• ثمَّ دعك من هذا كلِّه، وتأمَّل هذا المشهد الذي يكون فيه خصمك ليس صاحبك ولا زميلك، ولا فردًا من الخلق، وإنما رســول الله ﷺ، وهو يُدْلي بشكواه ليس في محكمةٍ يُديرها بشــر، أو مكانٍ يقيمه أفراد، وإنما في عرصات يوم القيامــة، بين يدي ربك تبارك وتعالى، وفي يومٍ لا مجال فيه للاستعتاب البتة!..

مشــهدٌ يقف فيه رســولك ﷺ في ذلك اليوم، وأمام الخلائق، وفي مشهدِ الحساب والجزاء، وأمام

العالَم من الجن والإنس، وفي أيامِ الأرباح والخسائر، وفي لحظاتِ الفوز والخسران: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠]!

ما أدعوكَ إليه في هذه اللحظة أن تسأل نفسك: ماذا لو كنت أنت أحدَ هؤلاء المشتكى منهم في عرصات يوم القيامة؟ ماذا لو أنك عشتَ هاجرًا لكتاب ربِّك، ثمَّ كنت واحدًا ممَّن يتعرَّضون لشكوى رسولك ﷺ أمام رب العالمين؟.

• تخيَّل أنَّ هذه هي الحقيقة بتفاصيلها الطويلة، وأنت عشتَ معافًى في دنياك، تملك أوقاتًا كلُّها أو جلُّها ذهبت سُدًى، وكنت تملك أن تخرجَ من أسرِ هذه الشكوى، ولكنك تعمَّدْتَ ألَّا تصنع ما يقيكَ منها في قادمِ الأيام!.

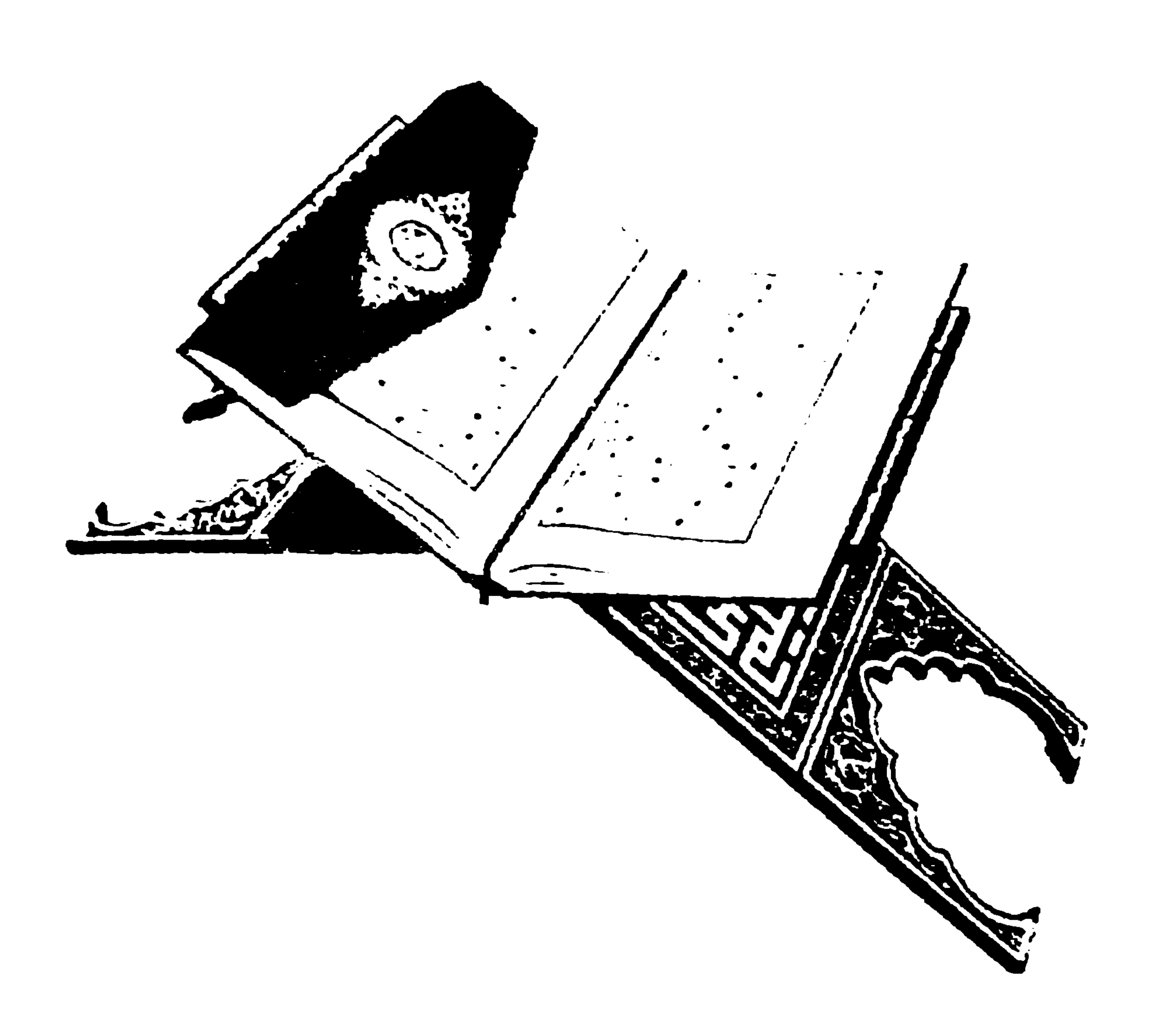
لم يكن هذا القرآن ـ الذي تُدار عليه الشكوى غدًا، وأنت أحدُ المشتكى عليهم ـ على منأى منك، لم يكن على رفٍّ بيتك، وفي حقيبتك التي يحتاج فتحها إلى عناء، أو القيام إلى ذلك الرفِّ لتأخذه،

كلا! وإنمـــا كان في جوالك، أقـــرب ما يكون إليك، ومع ذلك لم تفتحه في كثيرٍ من أيامك.

المدهش أنك كنت مُولَعًا بحمل جوالك، وتطلع في ساعاتٍ طويلة على وسائل التواصل الاجتماعي، بل كنتَ فـــي كلِّ لحظـــة وأنت تمارس شـــكلًا من أشـــكال الترفيه على جوالك، ثمَّ لـــم توفَّق أن تخلق علاقةً مع كتاب ربـــك تبارك وتعالـــى، أو توفَّق في استقطاع ما يســـعدك من كتاب الله تعالى، حتَّى كنت من ضمن المشتكى عليهم في عرصاتِ يوم القيامة!..

• دعني أسألك: إذا كان حظُّك من كتاب الله تعالى شكوى رســـولك ﷺ، فما حظُّك من تلاوته، وحفظه، وتدبره، وسماعه، والاستشفاء به؟!

المســـألة يا صاحبي كبيرة الشـــأن، عظيمة القدر، والشاكي رســـولك ﷺ، والمشـــتكَى إليه ربكَ تبارك وتعالى، والموقف فـــي لحظات القيامة، ولا ســـبيل للرجـــوع، ولا وقت للاعتـــذار، وأنـــت أوعى من أن تجري عليك هذه المشـــاهد من الحرمـــان، عافانا الله وإياك من آثاره وعواقبه.





إنَّ مَنْ كانوا مِنْ قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربِّهم، فكانوا يتدبَّرونها بالليل ويتفقَّدونها بالنهار.

الحسن البصري رحمه الله تعالى







من الكرامات

(أ)

• لن تتخيَّل ما يمنحك كتاب الله تعالى من أفراحٍ حتَّى تُلقي بسمعك وبصرك في حديث رسول الله ﷺ، فترى من خلاله كلَّ شيء، وفي مراتٍ كثيرة نكتشف أننا سمعنا ذلك الحديث مئاتِ المرات، ولكنه لم يأخذ حظَّه من قلوبنا ومشاعرنا، وبقي كغيره مجرَّد معرفة، لا علاقة لها بالروح، ثم يأتي عليها زمنُ النسيان حتَّى تتلاشى، وينتهي منها كلُّ شيء.

• دعني أسألك: ما أعظم خبر سمعتَه فانداحت الأفراح في قلبك؟ ما الحدث الذي وقع لصديقك وزميلك، وتمنَّيْتَ أنك شريكه في ذلك المعنى؟ ما النجاح الذي كنت تتوق إليه، وقصرت بك الأماني عن تحقيقه؟ وأجزم أنَّ لديك في هذا المعنى شيءٌ كثير.

فإن قُلتَ: وَلِمَ تسألني عن أفراحٍ فاتت، وأحداثٍ مرَّت، ومشاعر لم تلقَ أفراحها بعد؟! فأنا أحوج ما أكون إلى نسيان كلِّ ذلك، فما شأنك تُعيدُ الأحزان إلى قلبي من جديد؟!.

فسأقول لك: لستُ من أولئك الذين يجدِّدون أحزانك، ويثيرون متاعبك، ويجهدون في قلق مشاعرك، كلا! وإنما أردتُ أن أفتح لك بابًا من الأمل، وفرصةً للنجاح، ونافذةً على الربيع، وأردتُ أن أقول لك: لم يَفُتْكَ شيء، وبين يديك أفراحٌ تفوق كلَّ ذلك الفائت من عمرك، وهو أقرب ما يكون إليك، وتملك أن تبني مجده بنفسك دون شيء، فتعال معي لقراءة هذا النصِّ النبويِّ، لترى المشهد بنفسك، وتحكم عليه من خلال وعيك وفكرك.

قال ﷺ: «**لا حسدَ إلَّا في اثنتين**» وذكر منها: «**رجلٌ آتاه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليلِ والنهار**»[1].

ودعني أَقُلْ لك: أَعِدْ قراءة الحديث: «**لا حسد إلَّا في اثنتين**» والمعنى: كلُّ النجاحات التي تتوق إليها

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بقلبــك، وتتشــوَّف إليهــا ببصــرك، وتشــتاق إليها بمشاعرك، هي كلها دون اســتثناء أقلُّ بألفِ مرة من هذا المشهد المدهش بين يديك: «**رجلٌ آتاه الله القرآن، فهو يتلوه آنــاء الليلِ والنهــار**»! والمعنى: ليس هناك شيءٌ يستحقُ الحسد (أي: أن تغبط فيه غيرك)، لا مال ولا جاه ولا سلطان ولا شيء من متاع الحياة العاجل، إلَّا أن ترى مَنْ مَنَّ الله تعالى عليه بهذا المعنى الكبير «**رجلٌ آتاه الله القرآن، فهو يتلوه آنــاء الليلِ والنهار**»، فذاك هو الذي يســتحق أن تلتفتَ إليــه، وتتوقَ إلى ما عنده، وتشتاقَ إلى ما أعطاه الله تعالى فحسب.

• **والذي نفسي بيده، لو أنَّ قلوبنا صالحةٌ للحياة، لتغيَّرت نظرتُنا لكتاب الله تعالى رأسًا على عقب! أما قُلتُ لكم يومًا: إنَّ مشــكلتنا مع النصِّ الشــرعي أننا لا نقرؤه بمشاعرنا وأرواحنا!.**

١٤

من الكرامات

(ب)

• ثمَّة أسواقٌ للإبل في زماننا، يحدَّد زمانها ومكانها، ثمَّ تُجلب الإبل لذلك المكان، ويجري عليها مزاد المشترين، وتختلف تلك الأثمان بناءً على مواصفات تلك النوق، ويصل ثمن بعضها لعشرة آلاف، وبعضها الآخر لعشرين، ومنها: ما يبلغ ثمنها مئة ألف، ومنها ما يصل إلى أكثر من ذلك، وربما لا تتخيَّل ما أقول لك الآن، ولكني أسرد عليك واقعًا موجودًا وأسواقًا يُعلن عنها، وأماكن يعرفها القاصي والداني، وباتت حديثَ النَّاس في كلِّ مكان.

الناقةُ الواحدة يصل ثمنُها إلى ملايين الريالات! لعلك تتنهَّد طويلًا، وتقول: ثمَّة أمنيات لا سبيل إلى التأمُّل فيها، فضلًا عن إشغال نفوسنا بآمالها في مستقبل العمر!..



• ماذا لو أنك كنت راغبًا في واحدة من تلك النوق، وواجدًا في نفسك لها، ومشتاقًا إليها، ولا قدرة لك إلى شيءٍ من ثمنها، وقيل لك: إنَّ ذلك في إمكانك، وثمَّة وسيلة واحدة وسهلة ويسيرة، ولا تكلفك شيئًا، وهي تصنع لك أشواقك في هذا الباب، فماذا تصنع؟.

فإن قلتَ: دُلَّني، حَدِّثْني، قل لي، عجل إليَّ، فلا حدَّ لأشواقي..

فسأخبرك بأنَّ نبيَّك ﷺ عرضَ على أصحابه هذا العرض المغري ـ كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ قائلًا: «**أيُحِبُّ أحدكم إذا رجعَ إلى أهله أن يجد ثلاث خَلِفَاتٍ** (أي: الحوامل من الإبل) **عظامٍ سمانٍ؟**» فقالوا: نعم، فقال ﷺ: «**فثلاثُ آياتٍ يقرأُ بهنَّ أحدُكم في صلاتِهِ خيرٌ له من ثلاثِ خَلِفَاتٍ عظامٍ سمانٍ**»!.

ثلاث آياتٍ تصنعُ ثلاث خلفات! فما بالك بأربع آيات، وعشر، وجزء، وثلاثة أجزاء، وختمة وختمتين وثلاث لكتاب الله تعالى؟!.

حَدِّثْني كم تتصوَّر أن يكون لك من تلك النوق؟!

ثم تخيَّل كم هـي أثمانها في الجملـة، ثم تخيَّل لو كانت تلك الأثمانُ صدقاتٍ في سـبيل الله تعالى، ثم تخيَّل أنك تردُ يوم القيامـة على ربِّك، وكلٌّ متصدقٍ في ظـلِّ صدقتـه، وأنت قـادمٌ بهذه الأمـوال التي لا يجمعها عشـرات التجار فضلًا عن الآخرين! حتَّى إنَّ النبـيَّ ﷺ كما في «صحيح مسـلم» خـرجَ على صحابته وهم في الصُّفَّة، فقال: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَـوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ** (وادٍ بالمدينـة) **أَوْ الْعَقِيقِ** (وادٍ بالمدينة) **فَيَأْتِـيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْـنِ كَوْمَاوَيْنِ** (أي: عظيمة السَّـنام) **فِـي غَيْـرِ إِثْـمٍ وَلَا قَطْـعِ رَحِـمٍ؟**» فقلنا: يا رسول الله، نحبُّ ذلك، قال: «**أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْـجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ ﷻ، خَيْرٌ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَـلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ**»!.

الحديث عن هـذا المعنى يفـوق تصوُّراتنا مرات ومرات، ولكنه هو الحقيقة لو كانت لنا قلوب.



من الكرامات

(ج)

• إذا أردت أن تقيِّمَ شيئًا في حياتك، وتضعَ له ميزانًا، فانظر إلى عناية الوحي به واهتمامه فيه، وتقديسه له!.

أُقيم ذات مساءٍ حفلٌ لتكريم حفَّاظ كتاب الله تعالى في مدينةٍ ما، وكان الحفل على شرفِ بعض المسؤولين والتجّار، وحين مرت مسيرة الحفَّاظ، وتقاسموا كتاب الله تعالى تلاوةً في الحفل، استدرَّتْ تلك المشاهدُ دموع أحد التُّجَّار الكبار، وبكى في الحفل، فقيل له: ما يبكيك، وأنت ترى مشاهد العزِّ والكرامة، وفواتحَ التوفيق لك، أن كنت واحدًا من رواد دعمهم في هذا المشروع المبارك؟!.

فقال وهو يبكي: تمنيتُ من الله تعالى أن يسلبني كلَّ هذا المال، ويعطيني هذا الشرف، الذي منحه لهؤلاء الأبناء!.

• **ثمَّة مشاريع ترزقك نجاحًا وتفوُّقًا، وتعطيك مالًا، وتمنحك مكانــة، وتُهَيِّئ لك فرصًا، ولكــن كلَّ هذه المشاريع تكون قاصرةً عن أن تمنحك هذه المكانة التي يمنحها القــرآنُ لصاحبــه،** للدرجة التــي يجعله إمام المسلمين في أعظم مشهدٍ من مشاهد الحياة! المشهد الذي يقوم فيه الخلقُ بين يدي الله تعالى في صلواتهم، لا يحقُّ لإنسانٍ أن يتســنَّم ذلك المجلس، إلَّا صاحب القرآن، قال ﷺ: «**يؤمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله**»، دون النظر إلى صغير أو كبير، فقير أو غني، أبيض أو أسود، طويل أو قصير، جميل أو دميــم.. إذا كان يحملُ هذا القرآن، فهو أحقُّ من يكون بهذا الموقف بين العالمين وبين ربهم تبارك وتعالى!..

ـ ولذلك كان عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما وعمره سبع ســنوات، ولا يجد ثوبًا يســتر بعض عورته، يُصلِّي بصحابة رســول الله ﷺ الكبار؛ لأنــه ممَّن حمل هذا الشرف العظيم!..

ـ وفي صحيح ابن ماجه: أنَّ نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان عمر قد اســتعمله علــى مكة، فقــال عمر: مــن اســتخلفت على أهل

الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى، قال: ومن ابن أبـــزى؟ قـــال: رجـــلٌ مـــن موالينا، قـــال عمر: فاســـتخلفت عليهم مولًى؟! قال: إنه قارئ لكتاب الله تعالى، فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قال: «**إن الله يرفعُ بهذا القرآن أقوامًا، ويضع به آخرين**»!.

• **إنَّ الأمَّةَ متعَبَّدَةٌ اليوم جماعاتٍ وأفرادًا من خلال الوحي، ألَّا يقدِّموا بين أيديهم إلَّا حافظًا لكتاب الله تعالـــى، حاملًا للوائه، مهما كان ســـنه ولونه ونســـبه ومكانته، ولا ينبغي لأحدٍ أن يخطوَ نحو تلك المقدمة الشـــرعية وفي الجموع الحاضرة من هـــو أحفظُ منه لكتاب الله تعالى مطلقًا..**

وإذا كان الأمر كذلك فأي مكانة يمكن أن نتحدث عنها في هذا المقام؟! أي معنًـــى للحياة أثمن وأجلُّ من هذا المعنى الكبير؟!..

وإذا كان الأمر كذلك، كان من حقِّ هذا القرآن أن تُدفع له الأوقات والجهود والأمـــوال، ويُبذل الغالي والنفيس في ســـبيل تلك الأحلام الكبـــرى لصاحبه اليوم وغدًا بين يدي الله تعالى.

١٦

من الكرامات

(د)

• كم مــرةً اجتمعت مع آخرين فدار ســؤال: من أنت؟ من أيِّ القبائل؟ ما نســبك؟ وأسئلةٌ كثيرة تُدار في هذه السياقات! بل تجاوز الأمر اليوم إلى أن يُدْفع مالٌ لمعرفة الحمــض النووي، لمعرفة نســبك، فإذا ما ثبت أنك من ســلالةٍ معينة أو بيــتٍ ما، كان هذا مصدر فخرٍ وعــزٍّ لأصحابه، ويبقــون ما بقي العمر يشتاقون لمن يسألهم عن ذلك النسب، أو يُجري فيه حديثًا، وتُســتقطع أوقاتٌ ضخمة فــي الحديث عن مشجَّرات النسب، وغيرها في هذا الباب.

ماذا لو قيل لك: ســنتجاوز بنســبك إلى بيوتٍ شريفة وأسرٍ عزيزة، بل سنجاوز بك شرف الانتساب إلى بيت نبي الله ﷺ؟ ماذا لــو قيل لك ذلك؟ كيف ستتخيل ذلك المعنى؟.



ماذا لو قيل لك: إنَّ نسبك سيتحوَّل من كلٍّ هذه المعاني الشريفة التي يجري التنافس فيها إلى شيءٍ آخـر، إلـى حلـمٍ عظيـم، وعجيـب ومدهش، ولا يتكـرر إلَّا فـي حيـاة أفـرادٍ معدودين مدى الدهر؟! قـل لـي.. حَدِّثْني.. كيف سـترى ذلك الموقف الكبير؟!..

لعلك تتـوق الآن إلى معرفة هـذا البيت، وذلك الشرف، وتلك المكانة، وقد سـرد عقلك ألف فكرة لهذا المعنى الذي تقرأ حرفه هذه اللحظة!.

• **تعال معي لأنقلك من كلِّ تصوراتك وأفكارك، وهمومك ومشاعرك، وكلِّ أمنياتك؛ إلى أمنيةٍ لا تكون إلَّا لصاحب القرآن فحسب:**

- في سـنن ابـن ماجه: مـن حديـث أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني: أنَّ النبي ﷺ قال: «**إنَّ لله أهلين من النَّاس**» قالوا: يا رسول الله، من هم؟ قال: «**هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته**»!.

أصحاب القرآن هم أهل الله تعالى وخاصته! واللهِ الذي لا إله إلَّا هـو، لو لم يكن في القـرآن إلَّا هذا

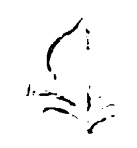
المعنى لكان كافيًا! أن تكون من أهل الله تعالى! من أخصِّ أوليائه ومحبِّيه في الدنيا كلها! وإذا كنت من أهل الله تعالى وخاصته، فبالله عليك ماذا تنتظر من ربك؟ ماذا تنتظر ممَّن حباك هذه المنزلة، وألقى في قلبك هذا المعنى الكبير، وخصَّك من بين العالمين، وهيَّأ لك الأسباب المعينة، وأوصلك إلى هذا الشرف الكبير؟!..

ـ في مراتٍ كثيرة يقول لك مسؤول أو كبير أو من له شأن، وهو يلقاك في جمعٍ: هذا من أهلي! ومن أخصِّ النَّاس لدي! وهو من أهل بيتي، أو من أصدقائي، فتلقى من مباهجِ الفرح والجمال في مشاعرك ما لا تستطيع أن تُحدِّثُ به، من فرطِ فرحك، فكيف ورسول الله يخبرك بقوله: «**إنَّ للهِ أهلينَ من النَّاس**» قالوا: يا رسول الله، من هم؟ قال: «**هُمْ أَهْلُ القرآنِ، أهلُ اللهِ وخاصَّتُه**»[1]!.

ـ **فإن قُلت**: ما الطريق إلى هذه الأمنية الكبرى؟ ما السبيل إليها؟ كيف ومتى ومن أين؟.

---

(١) صحيح ابن ماجه (١٧٩) عن أنس رضي الله عنه.



فيُقال لك: أن يتحوَّلَ هذا القرآنُ من كتاب تفتحه للبركة، وفي مراتٍ متفاوتة، إلى كتابٍ يُصبحُ صديقَ عمرك، وأنيسَ وحدتك، ورفيقَ دربك، وخِلَّك النديم في الليل والنهار، والحضر والسفر، والوحدة والاجتماع، تلاوةً وحفظًا، وتدبُّرًا وسماعًا، واستشفاءً وعلمًا ومعرفةً، حين ذلك يمكن أن نكون وإياك من أهل هذا المعنى الكبير: «إنَّ لله أهلين من النَّاس» قالوا: يا رسول الله، من هم؟ قال: «هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته»!.



لقد عشنا دهرًا طويلًا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القــرآن، فتنزل الســورة على محمد ﷺ فيتعلَّم حلالهـــا وحرامها، وآمرهـــا وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، ثمَّ رأيتُ رجالًا يُؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمتـــه ما يدري ما آمره ولا زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده منه، ينثرهُ نثر الدقل.

ابن عمر رضي الله عنهما



البشائر الأربع

• عندما تجلس أنت ورفاقك في زاوية المسجد، أو مع أسرتك في جانبٍ من البيت، أو مع أصدقائك في مساحةٍ من الأرض، تتحلَّقون حول كتاب الله تعالى، وتبدؤون رحلة تلاوته، أو تدبُّر آياته، فسيحدث في واقعكم تلك اللحظة ما يستحق الاحتفاء! تخيَّل ذلك الاجتماع الصغير في تلك المساحة، وتخيَّل في المقابل ما يحدث في الأرض!..

قال ﷺ: **«ما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ اللهِ، يتلونَ كتابَ الله، ويتدارسونه فيما بينهم، إلَّا نزلت عليهم السَّكِينةُ، وغَشِيَتْهم الرحمةُ، وحَفَّتْهم الملائكةُ، وذَكَرَهُمُ الله فيمن عنده»**[1]!.

١ ـ «إلَّا نزلت عليهم السَّكِينة»!:

لحظةٌ من زمانك، بغضِّ النظر عن مدَّتها ووقتها،

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وطولها وقصرها، لحظةٌ مع هذا المعنى الكبير تتنزَّل عليك بما لم يكن لك في الحسبان: «**إلَّا نزلت عليهم السَّكِينة**»! تتنزَّل عليك الطمأنينة، والراحة والاستقرار، والأمن الذي يجري في قلبك ومشاعرك وروحك إلى أقصى مدى!.

ماذا يعني نزول السكينة؟.

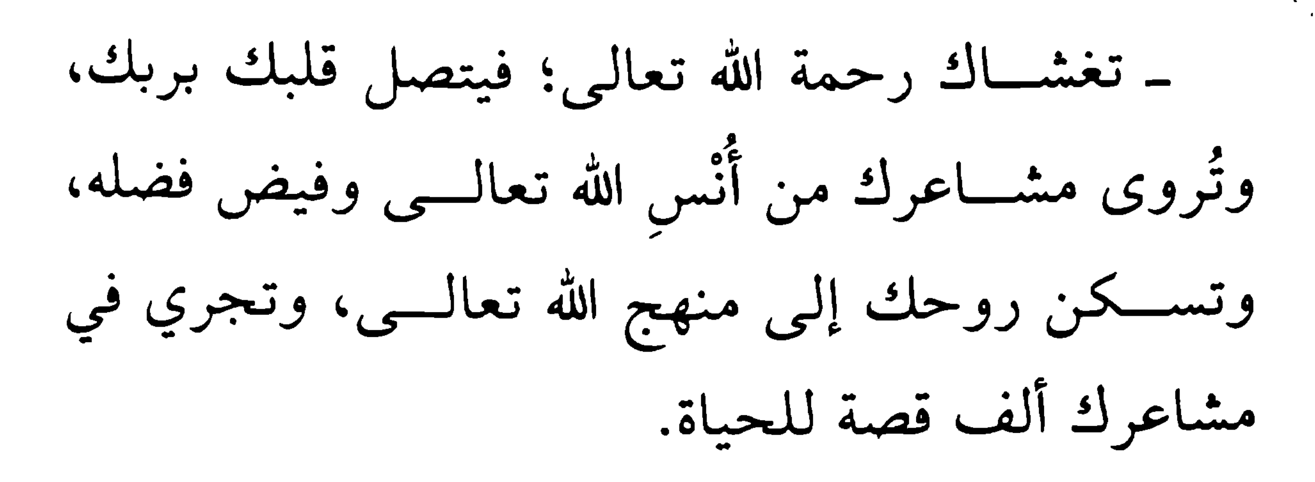
ـ إذا نزلت السكينة هدأ قلبك من مخاوفه، وارتاح من قلقه، وسلِم من شعث الحياة!

ـ حين تنزل السكينة تطمئن روحُك، وتشعر بالأمن والطمأنينة.

إذا نزلت السكينةُ، جمع الله شملك، وخفَّف عنك أعباء الحياة، ورزقك الإيمان، وأصبح كلُّ شيء في حياتك على وفق مراد الله تعالى.

٢ ـ «وغَشِيَتْهم الرحمة»!:

ـ تغشاك رحمةُ الله تعالى؛ فيتحوَّل ضيقك إلى سعة، وفقرك إلى غنى، وجوعك إلى شبع، ووحدتك إلى اجتماع، وبؤسك إلى فأل، وشعث قلبك إلى طمأنينة وراحة واستقرار!..



- تغشـــاك رحمة الله تعالى؛ فيتصل قلبك بربك، وتُروى مشـــاعرك من أُنْسِ الله تعالـــى وفيض فضله، وتســـكن روحك إلى منهج الله تعالـــى، وتجري في مشاعرك ألف قصة للحياة.

- تغشاك رحمة الله تعالى؛ فيثور الفأل والأمل في قلبك، ويزول اليأس من واقعك، وتمتلئ يقينًا بوعد ربك، ونصر دينك، وحصول موعودك، وتجد روحُك كلَّ شيء.

- تغشـــاك رحمة الله تعالى؛ فترضى بكلِّ شـــيء، ويكفيك أدنى شـــيء، ويســـكن قلبك بأي شـــيء، وتعيش في الوقت ذاتـــه آمنًا مطمئنًّا، ســـاكن الروح والقلب، هادئ المشاعر والوجدان.

- تغشـــاك رحمة الله تعالى؛ فيفتح الله تعالى لك كلَّ بـــاب، ويُهيِّـــئ لـــك كلَّ فرصـــة، ويبلِّغك كلَّ مقصود، ويجري لك آمالك كما تريد، ولا يبقى بين يديك شيء إلَّا ناله من رحمة الله تعالى، وتحقق لك منه كلُّ شيء.

٣ ـ «وحَفَّتْهم الملائكة»!:

ماذا لو أمكن في لحظةٍ من عمرك أن ترى صورة ذلك الاجتماع، وملائكة الله تعالى حافَّةً به تباركه وتدعو له!..

تخيَّل ملائكة الله تعالى تنزل بأمر الله تعالى من عليائها وسمائها لتشاركك هذه الأفراح، وتدعم هذا المعنى، وتصحب هذا الاجتماع وتباركه حتَّى ينقضي، ثم تعود إلى السماء من جديد!..

وايم الله إنَّ تصوُّرَ هذا المعنى فضلًا عن رؤيته، جالبٌ للأفراح في قلوبنا إلى أقصى مدى، فما الشأن في حقيقته وواقعه وتفاصيله حين يكون في حياتك في يومٍ ما!.

٤ ـ «وذَكَرَهُم الله فيمن عنده»!:

هذه خواتيم ذلك المجلس المدهش! الله تعالى يَذْكُرك في عالم السماء باسمك وفعلك، وعملك وحالك، وما تصنع. الله تعالى ﷻ وتقدَّسَتْ أسماؤه تعالى في ملكه وعظمته، يذكرُ هذا المجلس في أوساط ملائكته في السماء!.

تخيَّل لو أنك اليوم جلست مجلسًا، أو صنعت موقفًا، أو فعلت شيئًا، ثم بلغك أن الملك عرض أمرك، وكاثر بمجلسك في الأوساط التي يجلسُ فيها، ثم أثنى ثناءً عاطرًا على ذلك الفعل، وأبلغ به العالمين من حولك! فكيف بربِّك مالك الملك؟!..

• ماذا لو قيل لك: أَعِدْ قراءة الحديث مرةً أخرى: **«ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلَّا نزلت عليهم السَّكِينة، وغَشِيَتْهم الرحمة، وحَفَّتْهم الملائكة، وذَكَرَهُمُ الله فيمن عنده»**!

تكرُّمًا اقرأْه هذه المرة بقلبك ومشاعرك وروحك، تخلَّى عن كلِّ شيء حولك الآن، ثمَّ أقبل على الحديث مرةً ومرتين وثلاث وعشر مرات، حتَّى تعلم ما الذي يحدث معك حين تستقطع بعضًا من وقتك، وتقبل على كتاب الله تعالى: تنزل عليك السكينة، وتغشاك الرحمة، وتحفُّك الملائكة، ويَذْكُرك الله تعالى فيمن عنده، ثم اختر بعد ذلك ما تريد لنفسك.



أثمن اللحظات

• **تخيَّل أن القيامة قامت،** وخرب الكون، وبُعثرت القبور، وإذا بك واقفٌ بين يدي الله تعالى، والصراط نُصِب، والنَّار تَتَّقِد، والملائكة في العرَصات، والصحف تتطاير، وكلُّ صديق ورحم ولَّى مدبرًا، فارًّا منك خوفًا وقلقًا، والشمس على قدر ميل، والنَّاس في عرقهم، وقد بلغت القلوبُ الحناجر، والأولاد من هول الموقف صاروا شِيبًا، والحال فوق ما يصفه القلم، وأنت بين هؤلاء، وقد بلغ منك الموقف مبلغًا عظيمًا، وثمَّة موازين وحساب وجزاء، وبينما أنت في غمرة هذه الظروف، وفي وسط هذا الواقع، وبين يدي هذه الأهوال، **إذا بالقرآن يقف بينك وبين هذه الأهوال شفيعًا لك.**

تخيَّل تلك اللحظة التي يقفُ فيها القرآن، فيصنع لك فألًا في عمق ظروفك، ووسط أحزانك، وفي أقسى لحظات الخوف والقلق في حياتك، فيفرِّج

همك، ويوصد عنك أبواب السوء، ويفتح لك آفاقَ الأمل، ويصنع لك الحياة من جديد.

- قال ﷺ: **«اقرؤوا القرآن، فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»**.

- وفي جامع الترمذي وسنن الدارمي، وصححه الألباني: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: **«اقرؤوا القرآن، فإنَّه نِعْمَ الشفيع يوم القيامة، يقول يوم القيامة: يا رب حَلِّه حلية الكرامة، فيُحَلَّى حلية الكرامة، يا رب اكسه كسوة الكرامة، يا رب ألبسه تاج الكرامة، يا رب ارض عنه، فليس بعد رضاك شيء»**.

هل تخيَّلت هذا الموقف؟! المسألة ليست شفاعة فحسب، وإنما كرامة، وحلية، وكسوة، وتيجان الفوز، ثمَّ يتولَّى عنك السؤال الكبير: **«يا رب: ارض عنه، فليس بعد رضاك شيء»**!.

تخيَّل العالم من حولك في عمق القلق والخوف، والألم والحزن، وأنت في صحبة كتاب الله، يقف لك بين يدي الله تعالى، يُلبسك ويُحليك،

ويصنع لك التيجان، ويرفع مقامك، ويقف سائلًا الله تعالى ألَّا يُكرمك فحسب، وإنما يعطيك من نعيمه حتَّى ترضى!.

• المدهــش أنَّ ثمَّة حديث في ســنن ابن ماجه، حسَّنه ابن حجر والسيوطي والألباني: عن بريدة ﵁ يحكي لذةً أخرى، ويقــصُّ أفراحًا ملهمة، ويعيد لك بعض الذكريات المدهشــة، يقول فيــه ﷺ: «**يجيء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب، فيقول: أنا الذي أسهرت ليلك، وأظمأت نهارك**»!.

أوَ كنــتَ تظن أنَّ ســهرك ذهب ســدًى، وليلك الطويل في تراتيل السحر نسيه الزمان، وصومك في أيام الهجير ذهب من حياتك سدًى؟! كلا! وإنما جاء به القرآن الذي أسهرك، ودلَّك على الفضائل، وشحذ همتك؛ ليلقي بها أفراحًا بين يدي ربك ومولاك.

• **لعلك تتخيَّل يومًا بين يدي الله تعالى تنزل فيه الشمس قدر ميل**، فيذهب النَّاس في عرقهم، منهم من يبلغُ العرق كعبيه، ومنهم من يبلغ حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا، وليس ساعة أو ساعتين أو يومًا

أو أسبوعًا أو شهرًا أو حتَّى عامًا، اليوم الواحد كخمسين ألف سنة! ثم لك أن تتخيَّل في تلك المواقف والكروب، **وإذا بذاك الظل يُطاردك ويبحثُ عنك، ثم يُظلُّك، فإذا بالمكان بارد، والجو جميل، واللحظات بديعة،** في حين يبحث الخلق من حولك عن بعض تلك الأحلام التي تعيشها، فضلًا عن كلِّها!.

أتدري ما هو ذلك الظل؟ من أين جاءك هذا النعيم؟ ما سبب ظلك بين العالمين في تلك المواقف؟..

في «صحيح مسلم» من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال: قال ﷺ: «**اقرؤوا القرآنَ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ شَفِيعًا لأصحابِه، اقرؤوا الزَّهرَاوَين البقرةَ وسورةَ آل عِمران، فإنَّهُما تأتِيانِ يومَ القيامةِ كأنَّهما غَمَامَتان، أو كأنَّهما غَيَايَتانِ، أو كأنَّهما فِرْقانِ من طَيْرٍ صَوافٍّ، تُحاجَّان عن أصحابِهِما**»!.

والله الذي لا إله إلَّا هو إنَّ هذا المشهد يحتاج إلى إعادة قراءة ألف مرة حتَّى ندرك معانيه!.



حُلل الكرامات

• **كثيرةٌ هي الأسئلة التي تأتيك عن قضايا البرِّ بالأبوين، وأكثر تلك الأسئلة يتعلق ببرِّهما بعد الموت، وكلٌّ يبحث عن الأصلح والأجدى، والأكثر نفعًا، والأبقى أثرًا:**

ـ فمنهم من **يُكْثِرُ الدعاء**، عملًا بقوله ﷺ: «**أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**».

ـ وآخر قد يجهد في تحري مواطن **الصدقات** الأكثر نفعًا، والأدوم بقاءً، لقوله ﷺ: «**أو صدقةٍ جارية**».

ـ وثالثٌ **يُشارك في مجالاتٍ متنوعة**، رغبةً في توسيع دائرة ذلك الأثر لهما..

• وثمَّة أجرٌ مدهش في كرامته، ولا أعلم أثرًا بلغ مستواه، وإن كان الوالد له أصلٌ في بنائه ونمائه وبركته، إلَّا أنه كذلك مسؤولية كلِّ ابن، وبه تشيَّد للوالدين صروحًا من المجد، ومساحات مدهشة من التكريم.



هل كنت تتوقع يومًا أن تســاهم في نجاة أبويك من مواقــف كرب! أو تصنــع لهما مواقــف عزٍّ! أو تكتب لهما مشاهد من الجمال! ماذا لو قيل لك: إنَّ ثمَّة مشهدًا من المشاهد لا يُخْرِجُ والديك من أزمة أو يُسهم في زيادة حسناتهما فحســب، وإنما يأتي بهما إلى أعظم مواقــف التكريم والإجــلال بين يدي الله تعالى في ساعات الحساب والجزاء!.

تخيَّل معي تلك الصورة التــي يبعثها القرآن عن يوم الحساب، ويصف فيها مواقف القرابات، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧]. ثم تخيَّل في المقابل تلك الأسرة التي بارك الله تعالى في ولدهم، فاختار مشــروعًا لا يسهم في نجاتهم من مواقف الحساب فحسب، وإنما يقف بهم في ساحات الجلال والتكريم!.

ولعلك تقف مدهوشًا متسائلًا باحثًا عن الجواب،

هل ثمَّة عملٌ يقف بوالديك في مثل هذه المواقف، ويصنع لهما هذه الأحلام، ويكتب لهما هذه النهايات؟!..

تعال معي لأسرد لك الحكاية من أولها، وأريك بعض مشاهد ذلك البرِّ في أمتع صوره ومشاهده على الإطلاق.

ـ في «مسند الإمام أحمد»، و«سنن أبي داود»، وصححه محققو «المسند»: عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«من قرأ القرآن وعمل بما فيه، أُلبس والداه تاجًا يوم القيامة، ضوءُه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا»**.

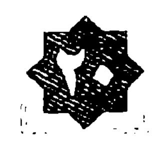
ـ وفي «المسند»، وصححه محققوه: من حديث بريدة الأسلمي، عن النبي ﷺ: أنه قال عن صاحب القرآن: **«ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويُكسى والداه حلَّتين، لا يُقَوَّمُ لهما أهل الدنيا، فيقولان: بم كُسينا هذه؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال له: اقرأ واصعد درجة الجنة وغرفها، فهو في صعودٍ ما دام يقرأ؛ هَذًّا كان أو ترتيلًا»**!.



وأجزم أنك لو منحت هذا المشهد وقتك وفكرك ومشــاعرك، وأدركت قبل ذلك المواقف التي يُعرض فيها، لألقيت بما بقي من عمرك في مشــاهد القرآن، تلاوةً وحفظًا، حتَّى ترد في النهاية تلك المشاهد التي تقفُ عاجزًا عن تخيُّل مشاهدها في عرَصات القيامة، ومواقف الحساب.

• **إنَّ هذا المشــهد حقيــقٌ بأن يدركــه الوالدان، فيجتهدان بكلِّ ما يملكان فــي حصول هذا المعنى، من خلال عنايتهما بأبنائهمــا، ودفعهما إلى حلقات القرآن**، والعناية بتحقيق آثار هذا المشهد الجليل في ساحات يوم القيامة..

وكذلك هو رســالة ضخمة جدًّا لــكلِّ ولد، ذَكَرًا كان أو أنثى: أن يقتطع من ســنام وقته، لتحقيق تلك الآمال الكبرى لنفسه ولوالديه، وقد يكفي هذا المشهد عن كثيرٍ من مشاهد البرِّ، والله المستعان!.



على سلالم الجنان

• قُضي الأمر، وانتهت قصة أحزانك في مشـاهد القيامة، وجـاء القرآن شـفيعًا لك، وألبسـك حلل الكرامة وتيجان الفضيلة، وجعلـك مُقدَّمًا مكرَّمًا في أعظم مشاهد الآخرة، فهل انقضى الأمر؟ هل انتهت مباهج القرآن من حياتك؟! كلا!.

ثمَّة مشهد أكثر دهشـةً وألذ معنًى، **إنَّ كتاب الله تعالى لا يتوقـف بك عند مجرد إنقـاذك من مواقف الحرج التي واجهتك، وإنما يبني لـك آمالًا عريضةً فوق ما تتخيَّل!.**

تعال معي لتقـرأ تفاصيل تلك القصـة، ولتقف بنفسك على تراتيل تلك الأفراح، التي يصنعها كتاب الله تعالى في حياتك..

في «جامـع» الترمذي وسـنن أبي داود وسـنن النسـائي، وصححه الألباني: من حديث عبد الله بن

عمرو، عن النبي ﷺ، قال: «**يُقال** (يعني: لصاحب القرآن): **اقرأ وارتق، ورتِّل كما كنت ترتِّل في الدنيا، فإنَّ منزلتك عند آخر آيةٍ تقرأ بها**»!.

• **إنَّ هذا التكريم الذي يصنعه الله تعالى لصاحب القرآن، يأتي يوم القيامة وقد جمع الله تعالى الأولين والآخرين في صعيدٍ واحد:**

ـ مشهدٌ يحضره الجن والإنس والملائكة، مشهدٌ تجري تفاصيله أمام المخلوقين جميعًا، وفي لحظات الخوف والفزع والسؤال والحساب!.

ـ مشهد تكريمٍ يأتي في لحظاتٍ يبحث فيها الإنسان عن حسنة، ويفتِّش فيها عن موقف طاعة، ويجهد جادًّا في العثور على فُتات الأعمال التي ينجو بها بين يدي الله تعالى، ويأتي صاحب القرآن عزيزًا عظيمًا مدهشًا، إلى الدرجة التي تُصنع له لحظات التكريم أمام العالمين، منذ خلق الله تعالى البشرية إلى يوم الحساب، ويُقال له على سبيل الإكرام والإنعام والجلال: «**اقرأ وارتق، ورتِّل كما كنت ترتِّل في الدنيا، فإنَّ منزلتك عند آخر آيةٍ تقرأ بها**»!.

• **تخيَّل أنك واحدٌ من الحضور الذين يشـــهدون هذا التكريم**، وقد أمضَّ الحزنُ والخوفُ والقلق قلبك ومشـــاعرك، وأنت ترى حافظ القرآن، وقد احتفَّت به مشـــاهد الرضا والجلال من ربه تبارك وتعالى، وهو يرقى فـــي الطريق إلى الفردوس مـــن الجنان، وكلما اعتلى درجةً صعد إلى الأخرى، وهو يرنو للأفراح في النهايات!.

ـ ماذا لو كنت في ذلك الموقف، وأنت ترى هذا المشهد الاستثنائي في التكريم، وقد كنت من أولئك الذيـــن حاولـــوا صناعة هـــذا المشـــهد المدهش في دنياهم، تذكَّرْتَ حينها أنك قـــررت في أيامِ دنياك أن تحفظ كتاب الله تعالى، ثم بدأت، فرأيت طول الطريق ومشـــقته، ثمَّ تنازلت عـــن الفكرة من أصلها لشـــقة تكاليفها، فإذا بك اليوم تقف بنفســـك على مشـــاهدِ التكريـــم، وتقـــول: مـــاذا لـــو أنـــي أتممـــت ذلك المشروع؟!.

ـ وآخر يرى هذا المشهد، ويذكر تلك الليالي التي تحدَّث فيها مـــع صديق عمره حيال هذا المشـــروع،

وجــرت أحاديث طويلــة، وكُتبت خطــطٌ وتفاصيل مشــهورة، وصــارت جملة لقــاءات من أجــل هذا المشروع، ثمَّ قطعتها بعض ظروف زمانك، وتوقفت، فتثور في نفسك مشاعر الحسرة! ماذا لو أتممت تلك الفكرة، وكنت أنت ورفاق الطريق في مشاهدِ التكريم في ساحات القيامة؟!.

ـ وثالثٌ بجانبك يرى تفاصيل هذا المشــهد، وقد بدأ المشــروع، وحفظ عشــرة أجزاء منه، ثمَّ تطاول عليها النســيان، فلم يبق منها شــيء صالحٌ للمباهاة في مشاهد الآخرة.. ورابعٌ حفظ عشرين.. وخامسٌ حفظ كتاب الله تعالــى كله، ولكن غمرته الدنيا بظروفها وأشغالها فنسيه من أصله، ولم يبق معه منه ما يكاثر به في تلك اللحظات، فأخذ يبكي على فواتِ الفرص في حياته، وضياعِ مشاهد العزٍّ من واقعه، وفــوات أثمن مشــاريع النجــاة على الإطلاق!.

• لقد حكى النبي ﷺ في «صحيح مســلم» قصةَ آخرِ رجل يدخلُ الجنة بعد مضض اللحظات، وأخبرَ أنه يُقال له وهو على بابِ الجنة: «**ادخل الجنة، ولك**

مثل الدنيا عشر مرات».. وقد تأخر كثيرًا في الطريق إليها، فكيف بصاحب القرآن الذي يأتي أولًا، وتُقام له مشـــاهد التكريم أمام العالمين، ويُقـــال له على سبيل الإجلال والإكرام والنعيم: «**اقرأ وارتق، ورتِّل كما كنت ترتِّل في الدنيا، فإنَّ منزلتك عند آخر آيةٍ تقرأ بها**»؟.

• **دعني أســـألك وأنت تقرأ هذا المشـــهد لحافظ القرآن الكريم**، وتلـــك النهايات التي يلقاها بين يدي الله تعالى، وما زلت تملك ألف فرصـــةٍ لصناعة هذا المشـــهد في حياتك، ويمكنك أن تأتي على أمانيك منه كما تريد، **ماذا ستصنع**؟.

قل لـــي: ما الأمانـــي التـــي تنداح فـــي قلبك ومشاعرك هذه اللحظة، وأنت تقرأ مشاهد التكريم والإجلال؟.

وما الأحداث التي تثور في نفســـك هذه اللحظة لتبدأ فصول الحياة مع كتاب الله تعالى من جديد؟.

لعل هذا الحرف، وذلك المشهد، وتلك النهايات تثور في نفسك، فتصنع واقعًا مدهشًا مع الأيام، فتأتي

في عِداد الذيـــن يُقال لهم يوم القيامـــة: «**اقرأ وارتق، ورتِّل كما كنت ترتِّل في الدنيا، فإنَّ منزلتك عند آخر آيةٍ تقرأ بها**»!.

وما ذلك على الله تعالى بعزيز، والموفَّق من وفقه الله تعالى، وكــم من متأخِّرٍ جاء فــي مقدمة القوم!.. وكم من قرارٍ صنع لصاحبه الأفراح!.



لا تنثروه نثر الدَّقْل، ولا تهذُّوه هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوبَ، ولا يكن همُّ أحدكم آخرَ السورة.

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه





مشهد التقديس

• ثمَّة مشاهد تحكي وعي الإنســـان، وتبيِّن فقهه وفهمه، وإدراكه لمصالحـــه الكبرى في الحياة، ولكن أن تعثرَ على مشهدٍ يصدمك من أول وهلة، ويجعلك تتوقف مرارًا وتعيد حســـاباتك مع نفسك، فذاك شأن آخر!.

أن تجد إنســـانًا يعـــرف كيف ينتقي من مشـــاهد الحياة ما يرفعه، ويُعْلي منزلتـــه، ويمنحه كراماتٍ لم تكن تخطر له على بال، من خلالِ مشهدٍ واحد، فذاك تتجلَّى فيه معاني التوفيق قبل كلِّ شيء.

• تعـــالَ معي لأروي لـــك حَـــدْسَ صحابي من صحابة رســـول الله ﷺ، وأوقفك علـــى فقهه وكمال وعيه وتوفيقـــه، حين اختار ما يبلِّغـــه أعظم المنازل، ويجعل موقفه قصةً تُروى في الجمال والإبداع.

في البخاري: من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان رجلٌ من الأنصار يؤمهم في مسجدِ قُباء، وكان كلَّما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة ممَّا يقرأ به، افتتح بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] حتَّى يفرغَ منها، ثم يقرأ سورةً أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كلِّ ركعة، فكلَّمه صحابة رسول الله ﷺ، فقالوا له: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتَّى تقرأ بأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال رضي الله عنه: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلتُ، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون بأنه أفضلهم، وكرهوا أن يؤمَّهم غيرُه، فلمَّا أتاهم النبيُّ ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «**يا فلان، ما يمنعُك أن تفعلَ ما يأمرُك به أصحابُك، وما يحمِلُك على لزومِ هذه السورةِ في كلِّ ركعةٍ؟**» فقال: إني أحبُّها يا رسول الله! فقال ﷺ: «**حبُّكَ إياها أدخلك الجنة**»!

لعلي أسألك: ما الجميل في الخبر؟ ما المدهش في القصة؟ ما الذي استرعى ذهنك من هذا الموقف الجليل من هذا الصحابي رضي الله عنه؟.

ألا ترى إلى قلبِ هذا الرجل، كيف استوعب القرآن؟ كيف فقه ما في سورة الإخلاص؟ كيف عرف معانيها، وأدرك أسرارها، وأيقن بما فيها؟.. ثم صار في النهاية إلى ذلك الحبِّ لها والشغف بها، للدرجة التي قال لأصحابه: إمَّا أن أبقى على قراءتها في كلِّ ركعة أو أفارقكم، لا خيار ثالث!.

• **قلوبنا في مراتٍ كثيرة تحتاج إلى هذا النوعِ من المعرفة والإجلال والتقديس لكتاب الله تعالى، حتَّى تهبَ له أوقاتها، وتمنحَه مشاعرها، وتدفعَ له همومها، وتصنعَ له كلَّ شيء، وتبذلَ في سبيله كلَّ غالٍ، ثمَّ هو يعطيها في النهاية كلَّ شيء**، ومالم يصل الشغف بنا إلى مثل هذه الصورة، سنحتاج إلى وقتٍ طويل حتَّى نبلغ هذه الثمار التي يهبها الله تعالى ويتفضَّل بها على من يشاء من عباده، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]!.

نحن اليوم في أمس الحاجة أن نعرف مُراد الله تعالى من كلامه، ولن تتكوَّن قيمة هذا القرآن في قلوبنا ما لم نعرف مراد الله تعالى من كلِّ سورة

وآيةٍ من كتابه الكريم، حتَّى نتعبَّد الله تعالى على بيِّنة.

إنَّ هذا المشهد يحكي لنا من جهةٍ إجلالَ هذا الصحابي لكلام الله تعالى، وتعظيمه وتقديسه له، ويحكي لنا من جهةٍ أخرى معرفتَهُ بما في هذه السورة من مشاهد وحدانية الله تعالى، وصمديته، وكمال ملكه، وقدرته على كلِّ شيء، وإذا أدرك الإنسان هذين المعنيين فقه عن الله تعالى كلَّ شيء، وأصبح صالحًا للحياة.

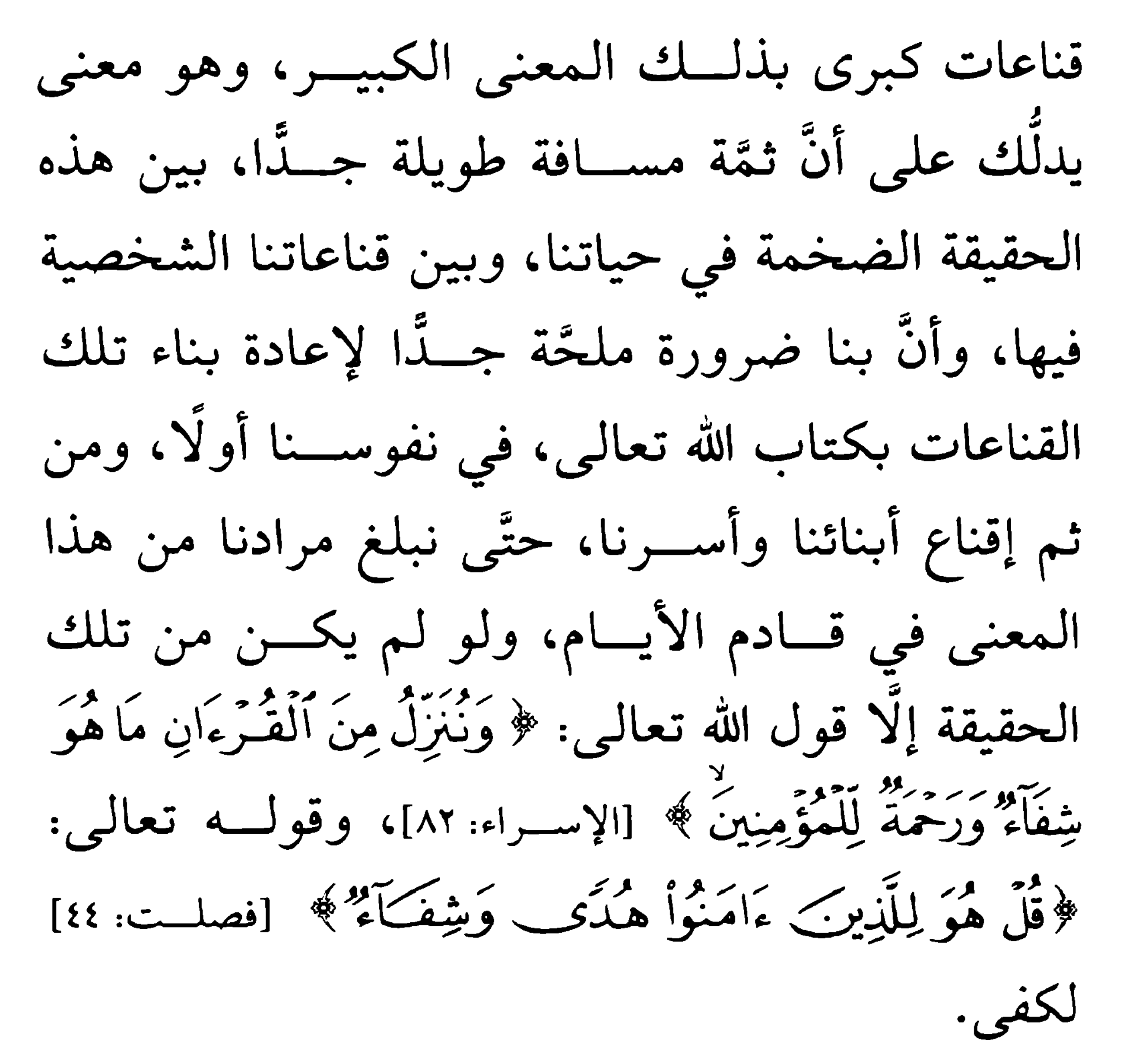




شفاء الأمراض

• **لو أنك زرتَ بعض المشافي الخاصة**، فضلًا عن المشـــافي العامة والتخصصية، لهالتك تلك الأعداد الضخمة التي تتردد على تلك المشافي، وتدفع مقابلًا ماليًّـــا ضخمًا وقد تســـتدين، وتذهب تلـــك الجموع مراتٍ كثيـــرة لأقل الأمراض أثرًا على نفوســـها، ولو أنك أجريت اســـتفتاءً عارضًا على تلـــك الجموع أو بعضها ذات مرة: **كم منكم من استشفى بالقرآن عند مرضه، واكتفى بذلك الاستشفاء**؟ أو استشفى به وزار المشـــفى في الوقت ذاتـــه؟ أو لم يستشـــفِ به من الأصل، واكتفى بالذهاب إلى تلك المشـــافي؟ لبان لك مقدار يقيننا بالأشـــياء الظنية المحسوســـة على حساب الأشياء الحسية والمعنوية اليقينية.

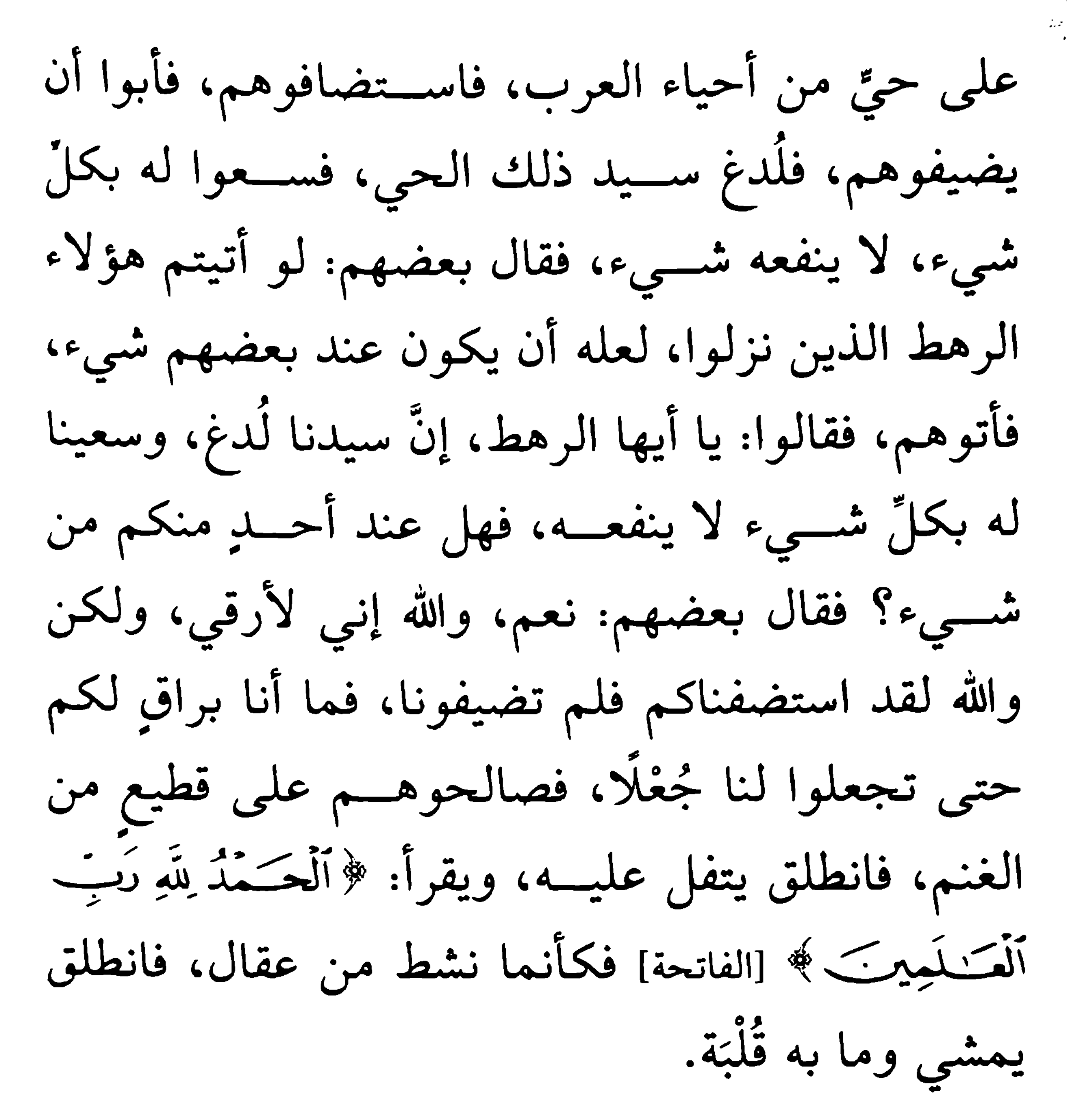
أجزم أنَّ غالب تلـــك الجموع التي تتكدَّس في المشـــافي لظروف المرض، وتعاني مـــن آثاره، لم تدرك أثر القرآن في قضية الاستشفاء، فضلًا عن بناءِ



قناعات كبرى بذلـــك المعنى الكبيـــر، وهو معنى يدلُّك على أنَّ ثمَّة مســـافة طويلة جـــدًّا، بين هذه الحقيقة الضخمة في حياتنا، وبين قناعاتنا الشخصية فيها، وأنَّ بنا ضرورة ملحَّة جـــدًّا لإعادة بناء تلك القناعات بكتاب الله تعالى، في نفوســـنا أولًا، ومن ثم إقناع أبنائنا وأســـرنا، حتَّى نبلغ مرادنا من هذا المعنى في قـــادم الأيـــام، ولو لم يكـــن من تلك الحقيقة إلَّا قول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإســـراء: ٨٢]، وقولـــه تعالـى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلـــت: ٤٤] لكفى.

• **وهذه الآيات عامةٌ في الشفاءِ البدني والمعنوي** لا فرق، ولا دليل على التخصيص بالشفاءِ المعنوي، بل التجـــارب كثيرة ومتعددة ومنتشـــرة في أوســـاط النَّاس، ومن أشدِّ الأمراض وأكثرها خطرًا على حياة صاحبها، وحديث أبي سعيد الخدري في قصة اللديغ في «صحيح البخاري» أشهر من علم:

ـ عن أبي ســـعيد الخدري رضي الله عنه، قال: انطلق نفرٌ من أصحاب النبي ﷺ في سفرةٍ سافروها، حتى نزلوا



على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلُدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكلِّ شيء، لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط، إنَّ سيدنا لُدغ، وسعينا له بكلِّ شيء لا ينفعه، فهل عند أحدٍ منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم، والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعْلًا، فصالحوهم على قطيعٍ من الغنم، فانطلق يتفل عليه، ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة] فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قُلْبَة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «مدارج السالكين»: تضمَّن هذا الحديث حصولَ شفاءِ هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه، فأغنته عن الدواء، وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء، هذا مع كون المحلِّ غير قابل، إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو أهل بخلٍ ولؤم، فكيف إذا كان المحل قابلًا؟!» اهـ.

وتكلَّم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عن نفسه وتجربته في حصول الشفاء الجسدي، فضلًا عن الشفاء الروحي، فقال: «وأما شهادة التجارب بذلك، فهي أكثر من أن تُذْكَر، وذلك في كلِّ زمان، وقد جرَّبْتُ أنا من ذلك في نفسي وغيري أمورًا عجيبة، ولا سيما مدَّة المقام بمكة، فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة تكاد تنقطع الحركة مني، وذلك في أثناء الطواف وغيره، فأبادر إلى قراءة الفاتحة، وأمسح بها على محل الألم، فكأن حصاةً تسقط، جرَّبت ذلك مرارًا عديدة، وكنتُ آخذ قدحًا من ماءِ زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مرارًا فأشربه، فأجد به النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء، والأمر أعظم من ذلك» اهـ.

ـ ألقيت ذاتَ مرة خطبة جمعة في أحد الجوامع، وتحدَّثت عن أثرِ الأدوية الشرعية في الشفاء، وذكرت من ذلك: القرآن، والصلاة، والعسل، والحبة السوداء، وغير ذلك.. وحين انتهت الصلاة قابلني رجلٌ لا أعرفه، ثم حكى لي قائلًا: أم زوجي تعرَّضت لمرض السرطان، وكانت تراجع أحد المشافي، حتى أُخْبِرت بأنه لا سبيل إلى علاجها مطلقًا، وأنَّ

السرطان فاق التحكُّم فيه بالنسبة للعلاج المقابل، ونصحوها بألّا تعود مرةً أخرى للعلاج.. يقول لي: ولكن هذه المرأة كان لديها يقين بأثر القرآن في شفائها، وهي امرأة تُعتبر في مقام العوام، ثمَّ يمَّمت وجهها إلى سورة الفاتحة، وكانت تُرقي نفسها مرارًا، وتذهب للعمرة، وتأخذ من ماء زمزم، وتقرأ عليه الفاتحة زمنًا، فإذا بها تشعر بتحسُّنٍ ملموس، حتَّى زارت المشفى في النهاية، وأُجريت لها الفحوص، وفوجئ الأطباء الذين يعرفون قصتها، بأنه من خلال الأشعة لم يعد ثمَّة أثر للمرض البتة، وأنها شُفيت منه تمامًا، قال لي: وأبشِّرك بأنها اليوم في أتمِّ صحةٍ وأجمل حال.

ـ وقال لي صديقٌ ذات مرة: اتصلت بي امرأة تشكو سوء ظروفها، وتعاملَ زوجِها معها، ولم تُرزق بأولاد، وتشكو في المقابل أنها لا تدري ما تصنع إن بقيت عند زوجها، فهو لا يُطاق لسوءِ خلقه، وإن عادت كذلك لأهلها فإنها لظروفٍ ما لا تجد راحة واستقرارًا، يقول: فقلت لها: أدمني قراءة سورة البقرة، وأرجو أن تجدي خيرًا في قابل أيامك.. ثم

يقول: وإذا بها تتواصل بعد سنوات، وتخبرني بأنها فعلت ما قيل لها، وتغيَّرت حال زوجها في كلِّ شيء إلى الأحسن، ورزقها الله تعالى منه أبناء، وتشعر برواء الحياة، وتجد كلَّ شيء.

ـ وحكى بعض الأطباء قصةً حصلت لامرأةٍ عمرها (٤٦) سنة، في مركز الأمير سلطان لأمراض وجراحة القلب، قال كلُّ من في المشفى يعرفُ حالة هذه المرأة: دخلت غرفة عمليات القلب، وكان عندها عملية صِمَامين مرتخيان، دخلت وهي تمشي على رجليها، وترى وتسمع وتتكلَّم، فلمَّا دخلت غرفة العمليات توقف القلب، فأخذوا ينعشونها ولكن لا سبيل إلى ذلك، فخرجت من العملية لا ترى ولا تسمع ولا تتكلم ولا تمشي، ولا تحرك طرفًا من أطرافها البتة، جثة هامدة، وبقيت على هذه الحالة في المشفى تسعة أشهر، وأُجريت لها أشعةٌ مقطعية مرارًا، ووجدوا أنَّها ميتة دماغيًّا، وخلايا المخ ضامرة، ليس فيها أدنى حركة أو إشارة، وكلُّ هذا الوقت وابنها وزوجها يترددان عليها، ويرقيانها بكتاب الله تعالى، حتَّى كانت تلك الليلة التي أيقظها الله تعالى من خلال

كلامه، إذ قُرئت عليها آياتٌ من كتاب الله تعالى، فإذا بها تتحــرك فيشــفيها الله تعالى، وتقــوم للحياة من جديد، وكان ابنها حاضرًا ذلك المشــهد، فما تمالك أن رمى بنفسه عليها، وصاحت الممرضة التي كانت تُمرضها من هول المشهد، وأقبل الأطباء فإذا بالحقيقة رأي عين.

ـ وقال آخــر: كان لــدي مرض عــدم الاتزان، وذهبت إلى جميع المشافي، واستخدمت كلَّ الأدوية التي صُرفت لي بخصوص هذا المرض، ولم يتحقق شيء ممَّا كنت أرجوه، ثمَّ شــاء الله تعالى أن ألتقي بفلانٍ من النَّاس، فسألني عن المرض، فقلت له: كما هو، فأشار عليَّ بأن أقرأ ســورة البقرة كلَّ يوم، بل قال لي: إن استطعت أن تقرأها كلَّ يوم ثلاث مرات فافعــل، وفارقته، ومن تلك الليلة وأنا أرقي نفســي بسورة البقرة على مدار سبعة أشهر، حتَّى شفاني الله تعالى من المرض بالكلية، والحمد لله أولًا وأخيرًا.

ـ ويقول آخر: أصابني صداعٌ مزمن، وعانيت منه معاناةً شديدة، وذهبت إلى كثيرٍ من المشافي، وزرت عددًا من الأطباء، وما زال المــرض باقيًا، حتَّى وقع

كتاب ابن القيم «الطـب النبوي» من «زاد المعاد» في ليلةٍ من الليالي بين يديَّ، فدلَّني على أخذ ماءٍ زمزم وقراءة الفاتحة وآية الكرسـي، وما زلت على ذلك، وأغسل رأسي بذلك الماء، حتَّى شـفاني الله تعالى، وكان آخر عهدي بذلك الصداع المزمن!.

ـ وتقول إحدى الأخوات: لازمني مرضٌ لسنتين، كنت أعاني منه معاناةً شـديدة، ولم أتـرك طبيبًا له علاقة في تخصُّصه بذلك المـرض إلَّا وزرتُه، ولكن دون جدوى، حتَّى هداني الله تعالى لسـورة الفاتحة، فشفاني الله تعالى من ذلك المرض بالكلية، وكان آخر عهدي به مع الأيام.

ـ وتقـول امـرأةٌ أخـرى: كان لديَّ جملـةٌ من الأمراض: قلقٌ وتوتر واكتئاب وذعر وخوف، فذهبت إلى الطبيب النفسي، وأعطاني علاجات، ووجدت لها أثرًا، ولكن المشكلة أني إذا تركتها عاد المرض أشد ممَّـا كان، وبقيت علـى حالتـي هذه زمنًـا طويلًا ومعاناتي تزيد، حتَّى هداني الله تعالى لسورة البقرة، فلزمتها، وداومت عليها يوميًّا مع الدعاء، فلم أُتمَّ إلَّا شـهرًا واحدًا، حتى شـفاني الله تعالى بالكلية، ولي

اليوم بحمد الله تعالى ســنوات، لم يَعُدْ لي المرض، وأعيش في عافيةٍ ونعمة بفضل الله تعالى.

ـ وأختٌ اجتمع عندها مرضٌ جسدي لازمته حالةٌ نفسية حادة، وكانت تستخدم مجموعةً من العلاجات، ثمَّ اتخــذت قرارًا أن تقرأ كتــاب الله تعالى، وتحافظ على أذكار الصباح والمســاء، وكوب ماء كلَّ صباح مقــروءٌ عليه ســورة الفاتحة عدة مــرات، مع ملعقة عسل، وبعد ثمانية أشهر زال المرض بالكلية.

ـ وقال أحد الإخوة المصريين: في عام (١٤١٨هـ) أصابني مــرض تليُّف الكبد، وقــرَّر الأطباء جميعًا دون اســتثناء في أكبر المشــافي في جدة أنَّ الكبد تالف، ولا يمكــن علاجه مطلقًا، بــل قال لي آخر طبيب زرتــه ـ وهو استشــاري في هــذا النوع من المرض ـ: لا تُتعب نفســك، فالعضــو تالفٌ جدًّا، ولا يوجد أمامك فرصة إلَّا شهر كأقصى أمد، سدِّد ديونك، واكتــب وصيتك، وتهيَّأ للقــاء ربك، وإذا كنت تريد أن تُدفن في بلدك، فاعمل حســابك من الآن.. وهذا الكلام كله كان في شــهر رمضان، وأنا أصلي بالنَّــاس، وقد بــدى عليَّ الإرهــاق، وكان

والدي رَحِمَهُ اللهُ عنـــدي في زيـــارة، فقـــررت أن أخبر والدي، وقُلت له القصة كاملةً.

فقال لي أبـــي: الحمد لله أنت أفضـــل من غيرك، غيرك يخرج في الصباح يطلب من الله تعالى الرزق، فتصدمه سيارة، فلا يرجع إلى بيته، وأنت أمامك شهر مهلة، فأرني ماذا تقدِّم لآخرتك؟!.

فكتبت وصيتي وسلَّمْتُها لأبي، وأخبرت زوجي وأولادي، وجلستُ في غرفة مخصصة، وقررتُ أن أســتقبل قدر الله تعالى، وليس معي ســوى القرآن وزمزم والعســـل والحبة الســوداء، وقد حرَّم عليَّ الأطباء كلَّ الأطعمة، فقط أشــربُ ماءً، آكل سليقًا بدون ملح، وممنوع مـــن اللحم، وقائمة طويلة جدًّا من الممنوعات، وكنت إذا خالفتُ وأكلتُ شيئًا من ذلك أتقيؤه مباشـــرةً، ولا يبقى في بطني منه شيئاً، وكانت المهلة معي شـــهر شـــوال فقط، وكنت أقرأ كلام ربي، وأنا موقـــن جدًّا بأن الـــذي خلقني من العدم ســـيحييني، ومحســـنٌ الظن به تعالى، وكنت لا أنام في الليل مطلقًا..

وفي ليلةٍ من الليالي في السدس الأخير من الليل، ناديت ربي ودعوته دعـاءَ المضطر، وكُنت قبل ذلك إذا مرض أحـدٌ من النَّـاس أرقيه بفاتحـة الكتاب، فيُشْفَى بإذن الله تعالى، فقلت في الدعاء: يا رب كُنت أضع يدي وأقرأ الفاتحة على النَّاس فتشفيهم، وها أنا أجلس بين يديك، وقد أُغلقت أبواب البشـر أمامي، وليس لي إلَّا بابـك، الذي لا يُغلـق.. وكنت أقول: يا رب أنا أولى أن تأخذ بيدي وتشفيني!..

فإذا بي أشـعر بـأن صحتي تتحسَّـن، وبدأت أطلب بعـض الأطعمة الممنوعـة، وكانت زوجتي ترفض ذلـك، وأبي يقول: أعطوه، هـذا في طريقه للموت، دعوه يأكل ما يشـاء! فبدأت آكل من تلك الأطعمـة، وأجد راحـةً بذلك الأكل، ويسـتقبلها الجسم بدون رفض..

ثم قيل لي بعـد ذلك: من الممكـن زراعةُ كبد، فبعثت بتقاريـري لإخوتي في مصـر لبعثها للمركز، وأخبروني بعد ذلك أنـه يمكن الزراعة، المهم مضى شوال ولم أمت، ثم قررت العودة إلى مصر للعلاج، وأنا وقتها أشـعر بأن الله تعالى شفاني وغيَّر المعادلة

بالكلية، وصلــت إلى مركز زراعــة الكبد في مصر، وبدؤوا بالكشف والأشعة والتحاليل والعينات، وإذا بالطبيــب يقول: ليس فيــك أيُّ مــرضٍ بالكلية! ثم أجريت التحاليل مرةً أخرى، فخرجت النتيجة نفسها لا يوجــد مرض، ثــمَّ خرجنــا إلى خــارج المركز، وعملت تحاليل أخرى في مركــز آخر، وإذا بالنتيجة كذلك، ليس في الكبد أي مرض!..

ثم عُدت إلى المملكة، ورجعت إلى المشافي ذاتها التي أخذت منها التقارير الأولى، وإذا بالنتيجة أنه ليس فيك أي شيء، وها أنا صحيحٌ بحمد الله تعالى!.

ـ وقال آخر: تعرَّض شــابٌّ لحادث سيارة، وبقي في المشفى أربعة أشهر، وكان على الأجهزة، حتَّى إنَّ المشــفى طلب من والده أن ينقله إلــى البيت؛ لأنه لا سبيل إلى شــفائه، وهم بحاجة إلى الجهاز الذي عليه، ولكن والده أخــذ يُؤخِّر الموضــوع، لعلَّ الله تعالى يمــنُّ عليــه بالشــفاء، حتَّى أخبرتــه إحدى الممرضــات أنَّ في عين ولدك حركــة، فلا تنقله من المشفى.. حتَّى شفاه الله تعالى، وخرج من المشفى، ويعيش الآن حياته الطبيعية..

يقــول راوي القصة: وقــد كُنت أســأل: هل من تصيبهــم الغيبوبة يعرفــون من حولهم ويســمعون، ولكن لا يســتطيعون أن يُعبروا، أو لا يعرفون شيئًا؟ حتَّى هيأ الله تعالى لي هذا الشاب، فسألته عن ذلك، فقال لي: ما كنت أشعر بشيء ممَّا يقع حولي، إلَّا إذا رُقيت بالقرآن!.

• **هذا بعــض ما وقفــتُ عليه مــن القصص عن المرضى الذين شُفوا بكتاب الله تعالى، وغيرها كثير، والقصص فــي هذا البــاب أكثر من أن يأتــي عليها مصنَّفٌ كهذا، ولكنِّي أحببتُ أن أفتحَ نافذةً لأثر هذا الوحي في أجساد النَّاس، فضلًا عن هدايتهم للحياة، والله المستعان.**



غيَّرني القرآن

• **كثيرٌ من النَّاس في زمانك قد لا يتخيَّل أحدهم أثر القرآن، ولا يُدرك معاني تلك الآثار التي يُحدثها على أصحابه.. وربما يتساءل قائلًا:** ماذا يمكن أن يترك القرآن من أثرٍ في حياة صاحبه؟ ما التغيير الذي يُحدثه القرآن في قلبي ومشاعري، فضلًا عن حياتي كلها في مستقبل الأيام؟.. لم أتصوَّر بعدُ أنَّ جملة آيات يمكن أن تصنع شيئًا في مسيرتي، فضلًا على أن تعصف بمشاعري، وتغيِّر مساري، وتصنع كلَّ شيء في حياتي!.

ومثل هذا السؤال طبيعي جدًّا، ليس في علاقة الإنسان مع كتاب الله تعالى، وكلام الله تعالى، وإنما يجري في كلِّ شيء فضلًا عن القرآن..

• **ورغبةً في تقريب أثر كتاب الله تعالى على حياة صاحبه، سأنقل لك أيها القارئ صورًا حيَّةً لأولئك**

الذين عاشوا التفكير ذاته، ثم عثروا على الحياة بعد ذلك من القرآن، فألقِ بمشاعرك قبل سمعك، واحضر قلبك في مشاهد الجلال، وتأمَّل هذه الأحاديث التي ينقلها أصحابُها إليك، ولا تحتاج إلى دليلٍ آخر أكبر من دليل التجربة والبرهان:

١ ـ «ثلاث سنوات قضيتها بين الأطباء، وفي العلاجات والأعشاب، لأُرزق بطفلٍ دون جدوى، وفي يومٍ ما، وبعد أن قاربت على اليأس، قرأتُ قول الله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].. ساورني سؤال كبير: إذا كان خلق السموات والأرض أكبر من خلق هذا الإنسان، فهو ﷻ أقدر على أن يخلق لي ما أؤمِّله وأرجوه مع الأيام، وسألت الله تعالى، ثم تحقق لي ما كنتُ أريد».

٢ ـ «منَّ الله تعالى عليَّ بالهداية، وسلكتُ طريق الاستقامة، فهجرني كلُّ الذين حولي، وتخلَّوا عني، فأحسستُ بالوحشة، وبدأتُ ألوم نفسي على قرارٍ كان يحتاج إلى شيء من التروِّي والتمهُّل، وبلغ

الأمر بي مبلغه، فإذا بي وأنا أقرأ حزبي من كتاب الله تعالى أقف على قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].. فعاد السكون إلى قلبي، وأحسستُ باليقين يخالط مشاعري من جديد، وبدأت حياة مختلفة في كلِّ شيء، وكلما هزَّني الشوق إلى الصحبة عُدت إلى كتاب الله تعالى فوجدت فيه العزاء».

٣ ـ «كنت أقارف بعضًا من المعاصي طاعةً لزوجي وتجنُّبًا لغضبه، حتَّى قرأتُ ذات مرةٍ قول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].. فارتجف قلبي، وارتعدت فرائصي، وبكيتُ طويلًا، وعاهدتُ الله تعالى ألَّا أعصيه مهما بلغ غضب زوجي، وجرت لي الحياة بعد ذلك كما أريد».

٤ ـ «تأخَّرَتْ أهدافي، وتعثَّرَتْ جملةٌ من مشاريعي، وكنتُ أجد صعوبةً في تحقيق النجاح في كثير من تلك القضايا التي أحلم بها، وبينما أنا أقرأ

في كتاب الله، وإذا بي أقف على قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].. فأفقت لعون القويِّ سبحانه، وبدأت أردِّدها في الطريق، وأستشعر معناها الكبير، وأقبلتُ على الله تعالى، وجاهدتُ في سبيل طاعته ما أملك، فهداني الله تعالى إلى كثيرٍ من تلك المعاني التي أُنْشِدُها، وأصبحت حافظةً لكتاب الله، وأسأل الله تعالى الثبات».

٥ ـ «كثيرةٌ هي الأشياء التي أؤمن بها، ولديَّ فيها قناعة، وأرددها، ولكني لا أتمثلها في مراتٍ كثيرة في حياتي، وينعزل قولي عن عملي كثيرًا، وأشعر بتأنيب ضمير يساورني في كلِّ مرة، وكنت كلَّما وصلت إلى قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]، ثارت في نفسي شجون العمل، ونفضت عني كسلي، وأقبلت على العفوِّ الكريم متمثِّلًا لِمَا أقول ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، وها أنا أجد اليوم رواء الحياة».

٦ ـ «كنت متعلِّقًا بالشهوات، وكدتُ أقع من خلالها في عمل السوء، وكثيرًا ما كان الجمال

يأسرني، وتنداح في نفسي أشواقٌ لكلِّ ما يعرض لي في الطريق، حتَّى ألقى الله تعالى في قلبي قوله: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١].

وكلما كرَّ عليَّ ذاك الخاطر دفعته بقول الله تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾، فصغرت الشهوة في عيني، وتاقت نفسي لتلك المعاني الكبار في مستقبل الأيام».

٧ ـ «حدث بيني وبين أحد إخوتي سوءُ تفاهم، وبعث إليَّ برسالة جوال تحمل في طياتها اتهامات باطلة، وظنونًا سيئة، وكلمات مؤلمة، فأثَّرتْ في نفسي، وغضبتُ، وكدت أدفع الإساءة بمثلها، حتَّى قرأت قول أحد ابني آدم لأخيه: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٨].. فتداركني الله تعالى بها، فكظمت غيظي وعفوتُ عنه، ورجوتُ ما عنده سبحانه».

٨ ـ «كنت ضمن رفقةٍ صالحة طيبة، وجدتُ منها كلَّ خير، ولكن يعرض فيها من الخلاف والنزاع والمشكلات ما يعرض لأيِّ جمعٍ آخر، وذات يومٍ

وقع في نفسي منها كثيرٌ، وقررتُ تركها ومفارقتها، وبينما أنا أقرأ في سورة الكهف يوم الجمعة، فإذا بي أمام قوله جلَّ في علاه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨].. فعدتُ إليهم من جديد، وقررتُ ألَّا أفارقهم مهما كانت عوائق الطريق.

٩ ـ «كنتُ أصلِّي بالنَّاس في صلاة التراويح، فلمَّا بلغت قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].. تأثَّرْتُ كثيرًا، وبكيت بكاءً طويلًا، ولأول مرة في حياتي أجد للبكاء طعمًا حلوًا، وجمالًا مدهشًا في قلبي ومشاعري، وطال وقوفي وأنا أتأمَّل كفاية القرآن عن كلِّ شيء، وما فيه من الرحمة والذكرى».

١٠ ـ «كنتُ فيما مضى من عمري أهتم بشؤون الحياة، وأُرهق نفسي كثيرًا، وأسعى في طلب كلّ شيء بكلِّ ما أملك، معتقدًا أن بذل الأسباب المرهقة بهذه الصورة هو الذي يقرِّب إليَّ مسافات النجاح،

ويصنع لي كلَّ شيء، حتَّى وقعتْ عيني على قول الله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ [السجدة: ٥].. فتنهَّدْتُ طويلًا، وأشفقت على الرهق الذي كنتُ أصنعه في نفسي، وأدركتُ بعد طولِ عناء أنَّ المدبِّر هو المتصرِّف في كلِّ شيء، وأنَّ عليَّ أن أُحسن هذا التوكل، وأقوِّي هذا المعنى، وأبذل من الأسباب المعينة على تحقيق تلك الأماني الكبار، فلطفَ اللَّطيفُ بي بعد طول أمدٍ في الطريق».

١١ ـ «حفظتُ كتاب الله تعالى وعمري أحد عشر عامًا، ثمَّ ضيَّعْتُ ذلك الحفظَ كُلَّه، وإذا بي في لحظةٍ ما أمام مشهد الشكوى في سورة الفرقان: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].. فتداركتُ نفسي، وعقدتُ العزم على الخروج من آثار هذه الشكوى، وعدتُ إلى كتاب الله تعالى أراجعه، ولم أتركه حتَّى ضبطته كاملًا، وحصلت على إجازتين في الإقراء، وأصبحتُ إمامًا وخطيبًا، وما زلتُ بحمد الله تعالى على ذلك الخير حتَّى هذه اللحظة من عمري».

١٢ ـ «كنتُ كثير العصيان، وتجتاحني فوضى في أوقاتِ الخلوة بالذات، ثمَّ ما هي إلَّا لحظات حتى أجدَ إجهاد المعصية، وأشعر بالندم، وألوذ بالبكاء والاستغفار، ثم ما ألبث أن أعود، ويسَّر الله تعالى لي رفقةً صالحة، وبدأتْ علاقتي بالقرآن الكريم، وكنت على بقايا من تلك الخلوات، حتى قرأت ذات مرة: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥].. وكأني لأول مرة أقرؤها! وبكيتُ بكاءً طويلًا، وعزمتُ على تزكية نفسي، حتَّى تكون مؤهَّلةً لمغفرة العفوِّ الغفور.

١٣ ـ «﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١].. هذه الآية كانت درسًا لي، قرأتُها وكأني أنا المخاطبة بها، وأتساءل مرات: أريد الجنة، وأريد رؤية الله تعالى، فما الطريق؟ وأتذكّر ضعف العمل، وقلة الزاد، فأعادني الله تعالى بها إلى الحياة، وقررتُ الاجتهاد في العمل الصالح، وها أنا على الطريق».

١٤ - «من أعظم الأشياء التي كانت تصدُّني عن التوبة، وتؤخِّرني عن مشاهد العودة إلى الله تعالى، وتؤخِّر طريقي للإصلاح: تلبيس إبليس، وكلما أردتُ الطريق الصحيح وقف في عرضه مُقنِّطًا بكثرة ذنوبي، وعظيم سيئاتي، وأنه لا طريق إلى مغفرة تلك الكبائر والسيئات، حتَّى قرأت ذات يوم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣ - ٧٤].. وقلتُ: إذا كان الله تعالى فتح باب عفوه وصفحه وتوبته لمن كفر به ونسب له الولد، فكيف بمثلي وأنا مؤمنٌ موحد؟! ولكن يعرض لي في الطريق ما يسوء!».

١٥ - «كنتُ طالب علمٍ، وذات مرة توقَّفْتُ عند قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: ٩].. فبكيت كثيرًا على ضياع ليالٍ كثيرة، وأنا لم أَشْرُف بالانتصاب قائمًا بين يديه في جوف الليل، ولو

لدقائق معـــدودة، فكان هذا التوقُّـــف، وذلك البكاء، وتلك العظة بدايةً لطريق أرجو أن يُديم الرَّحمن ظلاله الوارفة عليَّ ما بقيت على قيد الحياة».

١٦ ـ «من عشرين عامًا كلما قرأت قول الله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف: ٤٩]، أشـــعر أنني أنا المخاطـــب بها، وأحاول كلما قرأتُها اســـتعراض كلِّ ما فعلتُ في الأســـبوع، وأعلم في المقابل أنَّ كلَّ السيئات التي قارفتها كُتبت ورُفعت وطويت في تلك الصحف إلـــى يومِ الجزاء والحساب، وأذكِّر نفسي بأنه لا سبيل للنجاة من ذلك الكتاب سوى الاستغفار والتوبة».

١٧ ـ «ذات ليلـــةٍ اختلفتُ مـــع زوجتي وغضبتُ، وخرجتُ مـــن البيت، وشـــعرتُ بإرهـــاقٍ يعبث في مشاعري، ويُرهق جســـدي، وأجد مضضه في نفسي، فتوضأت وفتحت المصحف من جوَّالي، وأخذت أقرأ رغبة في تخفيف حدة ذلك التوتر، وساقني الله تعالى إلى قوله: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].. ولكأننـــي أول مرة أقرؤها في حياتي،

فردَّدْتُها مرارًا، ووجدت بردها في قلبي، وعدتُ إلى زوجتي معتذرًا متأسِّفًا، ومستجيبًا لأمر ربي، مقررًا أن يكون هذا سلوك حياتي ما بقي العمر».

١٨ ـ «ذات مساءٍ كنتُ على موعدٍ مع معصية من المعاصي، وقد استنفدتُ جهدي في ترتيب موعدها، فصليتُ العشاء، فقرأ الإمام قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].. فتذكَّرْتُ ما أنا فيه من الخير والنعم وجزيل العطاء، فنزعتُ عن أمري، وتركتُ موعدي، وتخلَّيْتُ عن مقابلة نعم الله تعالى بالسيئات».

١٩ ـ «كنتُ معجبًا مدهوشًا من حضارة الغرب، وذات يوم وأنا في السيارة برفقة جدتي في الطريق إلى بعض شؤون الحياة، كنتُ أُحَدِّثها عن تلك الحضارة وذلك الرقي، وأصف لها مشاهد الجمال والحضارة، وامتد بنا الحديث وإذا بأحد القراء في الإذاعة يقرأ في سورة الروم، ويمر بآية تفصل النزاع وتحكي حكمًا فصلًا قاطعًا لذلك الإعجاب:

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧] وكأني لأول مرة أسمعها ولأول وهلة تمر بي هذه الحقيقة الضخمة في البناء. فعدتُ أتأمل ذلك الوصف، فحلفتُ دون مقدمات أنَّ هذه هي الحقيقة، وأيقنتُ حينها أنه لا شيء يعدل الإيمان».

٢٠ ـ «وتحدَّث طالب من الجنسية الفرنسية عن رحلته إلى الإسلام، فقال: «حين سمعت قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الانفطار: ٦].. شدتني براعةُ الاستهلال، والعلوُّ في الخطاب، والثقة والقوة المطلقة التي يمتلكها قائل هذا الكلام، فأيقنتُ أنه ليس خطابًا بشريًّا، فكانت هذه الصدمة البلاغية أولى خطوات رحلتي إلى الإسلام».

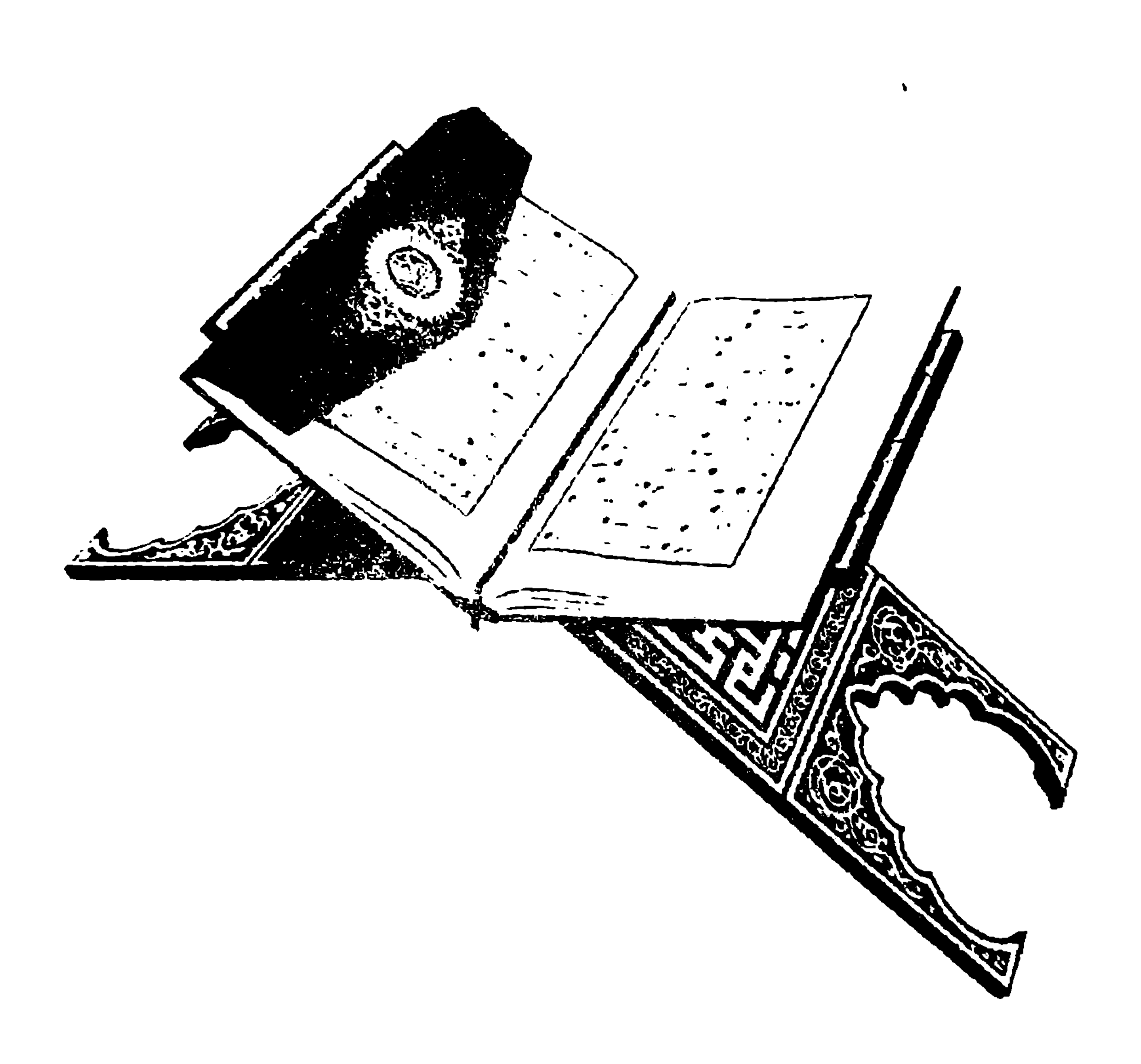
٢١ ـ «أقرضتُ قريبةً لي خمسة آلاف ريال، فلمّا تذكرت قول الله تعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٠].. سامحتُها بذلك المبلغ، فعوَّضني الله تعالى بعد زمن بأن يسَّر لي أحد أقاربي فسدَّد عني أقساطًا بأكثر من مئة ألف ريال».

٢٢ ـ «عالجتُ ضعف الخشوع في صلاتي بتذكُّر هذه الآية: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨]، وبقيت

كلما وقفتُ بين يديه تعالى تذكَّرْتُها، فأقبلت نفسي على الصلاة، واستشعرتُ مقامي بين يدي ربي، فزاد خشوعي، وكنتُ أتأمل أنَّ صفة العرض في الصلاة تشبه صفة العرض يوم القيامة.

٢٣ ـ «كنتُ أعاني من هموم وضيق، فسمعتُ ذات مرة شرحًا لقصة موسى، وكيف أنه في رحلةِ سيره وهمه وضيقه وظروفه البائسة، لمَّا أحسن إلى الفتاتين في عرض الطريق، وسقى لهما؛ آتاه الله تعالى الفرج.. وكانت عندنا مستخدمة بالمدرسة فقيرة جدًّا، فتوليتُ أمرها، وأحسنتُ إليها، ففرَّج الله همي، وأعتقني من الأرق، وأجرى في مشاعري الحياة، وأدركت ما قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]».

٢٤ ـ «كنتُ أكتب مقالاتٍ عن الحبِّ والعلاقة بين الجنسين، وإثارة الشهوات عبر وسائل التواصل الاجتماعي، فجاءتني ذاتَ مساء رسالةٌ عبر إحدى المجموعات، وإذا فيها: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].. فكان آخر عهدي بتلك الرسائل، وبدأت الحياة مع الله تعالى من جديد».





قال بشـــر القطَّان: ما رأيتُ رجلًا أحســـن انتزاعًا لِمَا أراد من آي القرآن من أبي سهل بن زيـــاد، وكان جارَنا، وكان يُديم صـــلاةَ الليل وتلاوةَ القرآن، فلكثرة درسه صار القرآن كأنه بين عينيه، ينتزع منه ما شاء من غير تعب.



مشاهد القدوات

• لقد مرَّت معنا نصوصٌ كثيرة جدًّا من كتاب الله تعالى، وسُنَّة نبيِّه ﷺ في أثر تلاوة القرآن، وحفظه، والاستشفاء به، على صاحبه في الدارين، وهي نصوصٌ كفيلةٌ بأن تُقْبِلَ بك على كتاب الله تعالى حفظًا وتلاوةً واستشفاءً، وثمَّة معنًى من أعظم المعاني التي ينتفعُ بها صاحبُها من كتاب الله تعالى أعظمَ الانتفاع في حياته في الدارين، وهو المعنى الذي نزلَ من أجله القرآن، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

• وما حاجة الأمة اليوم إلى شيءٍ كحاجتها لتدبُّر كلام الله تعالى، والانتفاع به في كلِّ أحوالها.. وإذا قرأتَ سير سلفك الكرام رضوان الله تعالى عليهم، ورأيت تلك المشاهد التي يصنعها القرآن في

نفوسهم، أدركت قول الأُوَل: كان الصحابة لا يتجاوزون العشر آيات من كتاب الله تعالى، حتَّى يتعلَّموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلَّمْنا القرآن والعمل جميعًا.

ـ وهذا هو دأب نبيِّنا ﷺ فإنه كان يقرأ مترسِّلًا، كما يقول **حذيفة** رضي الله عنه: صَلَّيْتُ مع رسول الله ﷺ، فكان يقرأ مترسِّلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مرَّ بسؤالٍ سأل، وإذا مرَّ بتعوُّذ تعوَّذ.

ـ وكان **ابن عمر** رضي الله عنهما يقول: كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلَّا السورة ونحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن؛ منهم الصبي والأعمى، ولا يُرزقون العمل به.

• وما حاجتنا اليوم إلى شيءٍ من الفقه كحاجتنا إلى فقه الصحابة رضي الله عنهم **في تعاملهم مع كتابه الكريم**، ولعلِّي أعرض من خلال هذه الأسطر كيف كانت تتعامل تلك الأجيال التي صاحبت رسول الله ﷺ مع كتاب الله تعالى، وكيف كانت تقرؤه؟:

- في «صحيح البخاري»: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قام عُيَينة بن حِصْن فنزل على ابن أخيه الحُرِّ بن قيس، وكان من النفر الذين يُدْنيهم عمر رضي الله عنه، فقال عيينة لابن أخيه: يا بن أخي لك وجهٌ عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، فاستأذن له، فلمَّا دخل قال: والله يا بن الخطاب ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل! فغضب عمر حتَّى همَّ أن يوقع به، فقال له الحرُّ: يا أمير المؤمنين، إنَّ الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإنَّ هذا من الجاهلين، ثم قال: والله ما جاوزها عمر حين تلاها، وكان وقَّافًا عند كتاب الله تعالى.

وكان رضي الله عنه إذا قرأ سورة يوسف في الفجر لا تكاد تُسمع قراءته من كثرة بكائه.. وقرأ ذات يومٍ قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨ - ١٠]، فبكى ولزم بيته متأثِّرًا من أثر ذلك، وكان في وجهه خطَّان أسودان من كثرة البكاء.

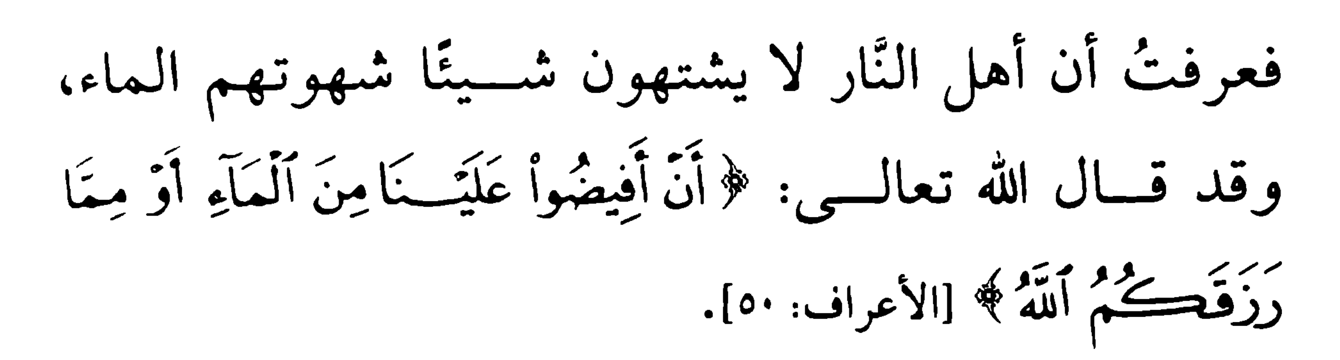
ـ ومثل ذلك ما أشار إليه عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى، حين قال: كان **ابن عباس** يقوم آخـــر الليل أمام البيت ويــردد: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣]، فيبكـي كثيرًا، فإذا رأيناه في الصباح كأنما فقد أحد أبنائه.

وقال ابن مليكة: صحبت **ابن عباس** رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة، فكان إذا نزل شطر الليل وقرأ: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩]، فجعـــل يرتِّل ويكثر في ذاكم النشيج.

وعن أبي رجاء قال: رأيت **ابن عباس** وأسفل من عينيه مثل الشراك البالي من البكاء.

وقال رضي الله عنه : لأن أقرأ البقـــرة في ليلة وأتفكَّر فيها، أحبُّ إليَّ من أن أقرأ القرآن هَذْرَمَةً.

ـ وشــــرب **عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما ماء بـــاردًا، فبكى واشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت آيةً في كتاب الله تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤]،



فعرفتُ أن أهل النَّار لا يشتهون شيئًا شهوتهم الماء، وقد قال الله تعالى: ﴿ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٥٠].

ويحكي نافع مولاه قيامه بالليل، فيقول: كان يُصلِّي ما كتبَ الله له، ثمَّ ينام، فيقول: يا نافع، أسحرنا؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاة، ثمَّ يقول: يا نافع، أسحرنا؟ فأقول: نعم، فيقعد ويستغفر ويدعو حتَّى يصبح، عملًا منه بقول الله تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۞ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٨].

ـ وقام **تميم الداري** رضي الله عنه ليلةً حتَّى أصبح، وهو يُردِّد: ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقام رضي الله عنه طويلًا في المسجد بعد أن صلَّى العشاء بقوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۞ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٣ ـ ١٠٤].

ـ وكانت **أم المؤمنين عائشة** رضي الله عنها تقرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٥ ـ ٢٧]، فتبكي ويشتد بكاؤها، وتقول: مُنَّ عليَّ وقني عذاب السموم.

وكانت تجلُّ شعائر الله تعالى وتعظِّمها، وتردِّد: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

وكانت تبكي كثيرًا عند قول الله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، خشية ألَّا تتمثَّل هذا المعنى الكبير.

ـ وقال عبد الرحمن بن عجلان: بتُّ عند **الربيع بن خثيم** ذات ليلة، فقام يصلِّي، فمرَّ بهذه الآية: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١]، فمكث عندها يبكي بكاء شديدًا.

وكان رحمه الله يقومُ من الليل ما كُتب له، فتناديه أمه: يا ربيع، ألا تنام؟ فيقـول: يا أمه من جن عليه الليل، وهو يخاف البيات، حُقَّ لـه ألَّا ينام، متذكِّرًا قول الله تعالـى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

ـ وقرأ ثابت البناني رحمه الله قولـه تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٦ ـ ٧]، فقال: تأكله إلى فؤاده وهو حي، لقد تبلَّغ فيهم العذاب.. ثم بكى وأبكى من حوله.

وبات ليلةً يقرأ في صلاة الليل ويردِّد: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]!.

ـ وقرأ مالك بن دينار مـرةً قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ثم قال: أقسـم لكم، لا يؤمن عبدٌ بهذا القرآن إلَّا صدعَ قلبه.

وقال الحارث بن سعيد: كنا عند مالك بن دينار، وعندنا قارئ يقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]،

فجعل مالــك ينتفض، وأهل المجلــس يبكون حتَّى انتهى إلى قوله تعالــى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]، فجعل مالك يبكي ويُكثر البكاء.

ـ ويقول عبد الله بن رباح: كان **صفوان بن محرز** إذا قرأ قــول الله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] يبكي طويــلًا، حتَّى أقول: قد اندقَّ قصيص زوره، أي: عظام صدره.

ـ وبات **محمد بن المنكدر** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ليلةً من الليالي، وهو يردِّد قول الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، ويبكي، حتَّى فزع أهله وسألوه، فاســتعجم عليهم، وتمادى في البكاء، فأرســلوا إلى أبي حــازم فأخبروه بأمره، فجاء إليــه أبو حازم وهو يبكي، فســأله عن ذلك، فأفصح لــه أنَّ ذلك من أثر قوله تعالــى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، فبكى أبو حازم واشتد بكاؤهما.

• **ومن فقهك وكمال وعيــك: أن تتدرَّب على هذا المعنى في قابل عمرك، وأن تجتهد في تكوين**

ملكـــة التَّدبُّر لـــكلام الله تعالى، وتســـتقطع له من وقتك تعلُّمًا وفقهًا، حتَّى تأتي من كتاب الله تعالى على أمانيك.

والمسألة ليست شاقة، وإن كانت تحتاج إلى شيء من الجهود والأوقات، ولكنهـــا قريبةٌ بإذن الله تعالى على الجادِّين، ومن جرَّب هـــذا المعنى، وفَقِهَ المراد من كلام الله تعالى، وحاول تطبيق ما فَقِهَهُ، فإنه واردٌ على مباهج لم تكن تخطر له على بال.



بماذا تُعرف؟

• في مجـال الوظائـف الدنيوية هناك ما يُسمى بـ «السيرة الذاتية»، وهي وصفٌ لسيرتك، وما تملك من مهاراتٍ وقدراتٍ وإمكانات، تُقدمها للمؤسسات والمراكز والدوائر التي تحتاج إلى موظفين، وعلى قدرِ ما في هذه السيرة الذاتية من تلك القدرات والمهارات والإمكانات، تُهَيَّأ لك فرصُ التوظيف من عدمِها!.

لو قيل لـك اليـوم وأنت تقـرأ هـذا الكتاب: ما سيرتُك الذاتية؟ ما أهمُّ شيءٍ تتميَّز به شخصيتك؟ ما القضية التي تُعـرف بها في حياتـك؟... وأنا هنا لا أسألك عن قدراتٍ ومهارات وإمكانات تُسهم في توظيفك، **وإنما أسـأل عن مؤهلاتٍ تصنعُ مجدك في آخرتك، وتبني مستقبلك هناك!.**

قل لي، حَدِّثْني، بماذا تُعـرف؟ وما المؤهلات التي تُسهم في نجاحك، وتحقيق آمالك بين يدي الله تعالى؟!.

• **إنَّ القارئ في التاريخ والسِّـــير لن تُخطئ عينه تلك الشـــخصيات التي كوَّنت لأنفســـها ســـيرًا ذاتيةً مدهشة، حتَّى أصبحت تُعرف بها دون غيرها،** وأول ما تقـــرع تلـــك الأســـماءُ مســـمعك تعرفهـــم بتلك الأوصافِ التي أصبحت سيما لهم وبها، يعرفون.

ـ من تلك الشخصيات: أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه **؛ فهو** شخصيةٌ عُرفت بكتاب الله تعالى، ففي «الصحيحين»: من حديث أنس بـــن مالـــك رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: «**إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك:** ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ...﴾ [سورة البينة]، فقال: آلله سمَّاني لك؟ قال: «**نعم**»، **فجعل يبكي!.**

وســـأله النبي ﷺ ذاتَ يوم قائـــلًا: «**يا أبا المنذر، أتدري أيَّ آيةٍ من كتـــاب الله معك أعظم؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، فأعادها، فقلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقـــرة: ٢٥٥]، قال: فضرب فـــي صدري وقال: «**ليهنك العلم أبا المنذر!**»[١].

(١) أخرجه مسلم (٨١٠) عن أُبيّ رضي الله عنه.

وأجزم أنك بحاجةٍ ماسة جدًّا إلى قراءة هذا الحديث ألفَ مرة، حتَّى تستوعبه مشاعرك، ويأخذ حظه الكبير من نفسك: «**إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك:** ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ...﴾ [سورة البينة]؛ الله تعالى مالك الملك، العظيم الجليل، الكبير المتعال، يأمر أعظم رسله ﷺ بأن يقرأ سورة البيِّنة على أبي بن كعب!.

أما قُلتُ لك يومًا: **من ركَّز على شيءٍ، وتعنَّى من أجله، ودفع في سبيله كلَّ ممكن؛ صنعَ له التاريخ موقعًا في الحياة!.**

ثم تخيَّل في المقابل ابتهاجَ رسول الله ﷺ بمشروعه وقضيته، للدرجة التي قال له: «**ليهنك العلم أبا المنذر**».

وايم الله إنَّ هذين المعنيين من أدهش ما مرَّ عليَّ في حياتي كلها، فأين الجادون لإدراك هذه المعالي التي صنعها أبي بن كعب؟!.

- ثمَّ تأمل معي مرةً أخرى قول رسولك ﷺ، وهو يُرشد هذه الأمة إلى أن تأخذ علومها من المختصِّين

المبدعين المدهشين، ففي «صحيح البخاري»: من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة**» رضي الله عنهم أجمعين.

فكأنه يقول: هؤلاء أحقُّ من تُضرب إليهم أكباد الإبل.. وأعظم العلوم ما اتصل بكتاب الله تعالى.

ـ بل لك أن تتخيَّل أن رسول الله ﷺ يقفُ في مكانٍ ما، وتأخذه الدهشة لسماع صوت **أبي موسى الأشعري**، وهو يُصلي في ساعةٍ من الليل، ويقف ﷺ مدهوشًا لذلك المزمار القرآني العذب، ففي «صحيح مسلم»: أنَّ النبي ﷺ سمعه يصلي ذاتَ ليلة، فقال ﷺ: «**لقد أُعطي مزمارًا من مزامير آل داود**»! فقال أبو موسى بعد ذلك: لو علمتُ يا رسول الله لحبرتُه لك تحبيرًا!.

ـ فإذا ما شبعت من هاتين السيرتين، فتعال إلى سيرةِ **عبد الله بن مسعود** دقيق الساقين، وهو يصنعُ لنفسه ألفَ حكايةٍ في المجد، حين قال ﷺ: «من

أحبَّ أن يقرأَ القرآن غضًّا كما أُنــزل فليقرأه قراءةَ ابن أم عبد».

واملأ سمعك وبصرك من قول رسولك ﷺ: «**من أحبَّ أن يقرأَ القرآن غضًّا كما أُنزل**»، وحُقَّ لكلمةٍ من مِثْلِ: «**كما أنزل**» أن تشرئبَّ لها الأعناق، وتقعد عندها ركب الراغبين إلى المجد!.

المدهش في هذا الرجل: أنــه كان يقول: والذي لا إلٰه غيره لقد قــرأتُ من في رســول الله ﷺ بضعًا وسبعين ســورة، ولو أعلم أحدًا أعلمَ بكتاب الله مني تُبلِّغنيه الإبل لأتيته!.

ـ ويمكنك أن تقرأَ في هذا السِّياق سير **أئمة القرَّاء المشــهورين من التابعين**، من الذيــن حُملت عنهم القراءات لكتاب الله تعالى، وســترى كم هي الجهود والأوقات التي بذلوهــا حتَّى صنعوا لأنفســهم هذا المجد علــى مســتوى الدارين وما من قــارئٍ اليوم وضابطٍ لكتــاب الله تعالى ومعلِّم لــه، إلَّا وللقومِ به صلةٌ، ولهم فيه أكبرُ الأثر والمعنى.

• السـؤال الكبير في خاتمـة الحديث عن هؤلاء الأعـلام المعتنين بالقرآن الكريم: أنت ما سـيرتك؟ ما خبرك مع كتاب الله تعالى؟ ما الفصول المدهشة في حياتك فيما يخصُّ هذا القرآن تـلاوة وتدبُّرًا وتأمُّلًا، فضلًا عن الحفظ والمصاحبة لكتاب الله تعالى؟.



مباهج العمل

• واحدٌ من الأسـئلة التي تحتاجُ إلى جوابٍ متين يليق بذات السـؤال: حفظَ كتـاب الله تعالى، وتدبَّره وتأمَّله، وبقي معه زمنًا طويلًا، وقضى فيه السـاعات الطوال، ثمَّ ماذا؟ ما الذي صنعه القرآنُ في حياتك؟ ما الجديد الذي خلَّفه في شخصيتك؟ ما أثره عليك؟ هذه الملازمة المدهشـة منك لكتابِ الله تعالى ماذا تركت في أفكارك ومفاهيمك؟.

ما قيمةُ هذا الوحي إذا لم يتحوَّل صاحبه والمهتم به إلى شخصيةٍ قرآنية تعرف سَمْتَ القرآن وأثره عليها من أول ما تلقاها فـي الطريق؟ ما دور هذا القرآن في تشكيل تصوُّراتك عن الحياة؟ ما قيمة هذا الوحي إذا لم يتحـوَّل إلى معالم هدى يتمسَّـك بهـا العارفون والمدركون لثماره؟.

• وإنك إذا قرأت في سِـيَر صحابة رسول الله ﷺ أدركت كيف كانت تتعامل تلك الأجيال مع كتاب الله

تعالى! كيف كانت تجلُّ كلَّ آية، وتقوم لكلِّ توجيه، وتتمثَّل ما تجد فيه من هدى!.

ـ وأول تلك المعالم وأكثرها أثـرًا ما جاء في قصةِ أبـي بكـر رضي الله عنه، فقـد كان ينفق علـى مِسْطَح بن أثاثة رضي الله عنه، ولمَّا وقعت حادثة الإفك، وكان مِسْطَح ممَّن تكلَّم في الإفك، وأنزلَ الله تعالى براءة عائشة رضي الله عنها، قال أبو بكر: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال في عائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].. قال أبو بكر رضي الله عنه: والله إني لأحبُّ أن يغفر الله لي، فأرجعَ إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا.

ـ ومثل ذلك ما جاءَ فـي قصةِ ثابت بن قيس بن شمَّاس رضي الله عنه، وهو يستقبل قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢]، وكان رضي الله عنه جَهْوَرِيَّ الصوت، وإذا به يتركُ مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتوجَّه إلى بيته،

ثمَّ يربطُ نفســه ويقعد باكيًا، ويجــزم بأنه المقصود الأول في هذه السورة، حتَّى يفقده النبي ﷺ، ويبعث من يســأل عنه، حتَّى وجده المبعوث في بيته مقيِّدًا نفسه باكيًا، فيعود إلى رســول الله ﷺ فيخبره الخبر، فإذا برسول الله ﷺ يقول: «**بل هو من أهل الجنة**».

وإنــك لتقرأ هــذا الخبــر فيدهشــك تعامل هذا الصحابي رضوان الله عليه مــع كتاب الله تعالى، وأنه يستقبله اســتقبال المجلِّ المعظِّم لِمَا فيه من الدلائل والآيات والبينات، وتُدهشك في المقابل هذه الشفافية فــي التعامل مع النفــس، لدرجة التهمــة مع صالح عملها، وكبير شأنها، وأنها من أهل الجنان!.

ـ فكيف بك وأنت تقرأ ما في «الصحيحين»: من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان **أبو طلحة** أكثرَ الأنصار مالًا، وكان أحبَّ أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخُلها ويشرب من ماءٍ فيها، فقــال أنس: فلمَّا نزلــت ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قال أبو طلحة رضي الله عنه: يا رسول الله، إنَّ الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، اللهم إنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها

صدقةٌ لله، أرجو برَّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: «**بخٍ، ذاك مالٌ رابح، ذاك مالٌ رابح!**»..

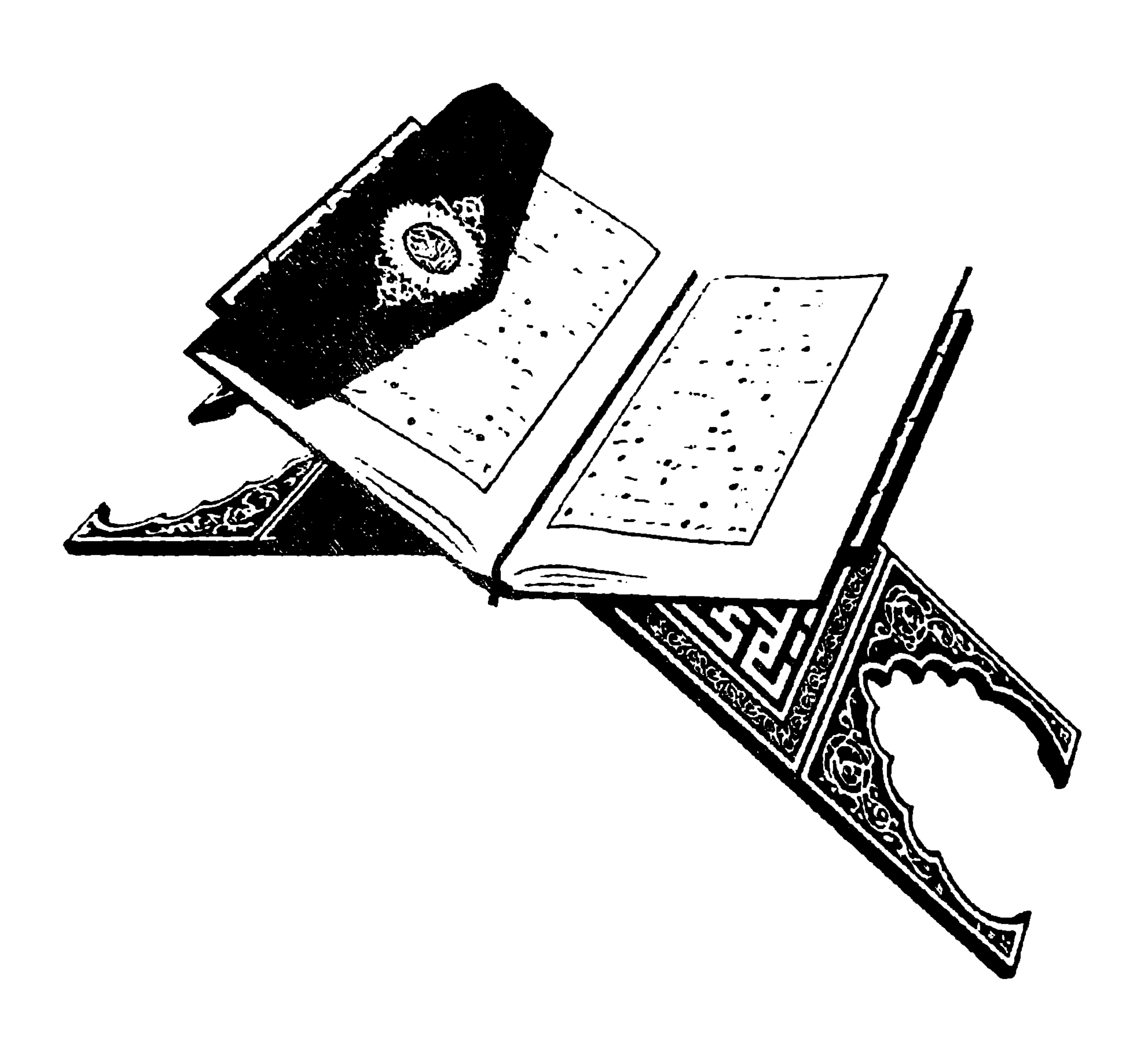
ولك أن تنيخ مطاياك عند هذا الخبر، فالمسألة ليست استجابةً عادية، أو تبرُّعًا بفضولٍ لا حاجة للإنسان به، وإنما هذا الإجلال لكتاب الله تعالى، والعمل بما فيه، للدرجة التي يأتي إلى بستانه وأثمن ما يملك في حياته كلها، ثم يُلقي به مباشرة بين يدي النبي ﷺ لمجرد أنَّ الله تعالى قال: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]! وايم الله إن هذا لفصلٌ مورقٌ بالحياة إلى أقصى مدى!.

ـ فإن لم تُرْوَ بعد من هذا المعنى، فتعال إلى ما رواه الإمام أحمد، والطبراني بسندٍ صحيح: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لمَّا نزل قول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قال **أبو الدحداح الأنصاري** رضي الله عنه: وإن الله ليريدُ منا القرض؟ قال ﷺ: «**نعم، يا أبا الدحداح**» قال: أرني يدك يا رسول الله، فناوله يده قال: فإني

أقرضت ربي حائطي، قال: وحائطه له فيه ســت مئة نخلة، وفيه أم الدحــداح وعيالها، فجاء إليهم فنادى: يــا أم الدحــداح! قالت: لبيــك، قــال: اخرجي من الحائط، فقد أقرضته ربي ﷻ، وفــي رواية: أنها لمَّا سمعته يقول ذلك، عمدت إلى صبيانها تُخرج ما في أفواههم، وتنفض ما في أكمامهم، فقال ﷺ: «**كم من عِذْقٍ رداح في الجنَّة لأبي الدحداح!**».

وهذا غيــضٌ من فيــض، وقليلٌ من كثيــر، ممَّا طفحت به السُّــنة النبويــة، وكتب السِّــيرَ عن هؤلاء الأعلام الذيــن كانوا يدركــون عظمةَ هــذا الوحي، ويصنعون له من مشــاهد الجلال والتقديس ما يفوق الوصف، ولســنا في مقام الإحصــاء، وإلَّا لتزاحمت تلك النصوص بين عينيك.

• **فَحَدِّثْني عنك أنت، كيف تستقبل تلك الأوامر والنواهي، التي تُطل إليك في كلِّ سطرٍ من كتاب الله تعالى؟ وهي تهديــك إلى أجلِّ المواقف وأشــرفها وأعزها على الإطلاق، وتبني منك مثالًا صالحًا للحياة في الدارين.**





قال جعفر بن الضبعي: كان مالك بن دينار من أحفظِ النَّاس للقـــرآن، كان يقرأُ علينا كلَّ يوم جزءًا من القرآن حتَّى ختم، فإن أســـقط حرفًا قال: بذنبٍ مني، وما الله بظلَّامٍ للعبيد.



كيف أسلموا؟

• لعلك رَوِيتَ أو كدتَ تَروى من تلك المعاني التي سقتُها لك عن كتاب الله تعالى، ولم يبق لديك أي شكٍّ أنك غارفٌ من بحر الجمال والدهشة، ومقبلٌ على أعزِّ أمانيك من خلاله، ولعلِّي أوقفك على **قصص وأخبار مَنْ لم تعرفْ قلوبهم الإيمانَ من أصله، ولا علاقة لهم بدين الله تعالى، ولا يعترفون برب فضلًا عن إجلال لكتاب مقدَّس، أو النظر إلى سطرٍ مرقوم، لترى سطوة القرآن التي ما إن تعانقها أُذنٌ إلَّا وتتسلَّل إلى مشاعر صاحبها، وتضرب في قلبه إلى أقصى مدى، وتعيده مؤمنًا بعد الكفر، وحيًّا بعد الموات، والله المستعان!.**

١ ـ هذا رجلٌ كافرٌ ملحد لا علاقة له بدين الله تعالى، سمعَ القرآن ذات مرة، وأقبل على قراءة سورة عبس في مرةٍ أخرى، فإذا به يقول: «تأثَّرْتُ كثيرًا بالآيات التي يعاتب الله تعالى فيها نبيه ﷺ للتصرُّف

الذي تصرفه مع ذلك الأعمى، وأدركتُ حينها أن هذه الرسالة ليست من إنسان، ثمَّ بدأت علاقتي بالوحي من تلك اللحظة، والحمد لله أن هداني وردني إلى الطريق من جديد».

الرسام: رشيد سرخس

٢ ـ والآخر موسيقي عالمي معروفٌ ومشهور، يقول: «الماضي الذي عشتُه هو الذي قادني إلى الإسلام، بدأتْ تواجهني جملةٌ من الظروف والعقبات في مهنتي التي أعمل فيها، ومثلُ ذلك في علاقاتي بالآخرين، تبدَّتْ لي كذلك جملةٌ من المشكلات، حتَّى قلبي تبدَّل عن ذي قبل، ومشاعري أوشكت على الغرق في الهموم، وبدأت تسوء حالتي، وفي قلبي إحساسٌ متزايد بالإحباط، بل وصلت إلى مرحلةٍ أيقنتُ فيها بأني سأجنُّ، وأذكر أنني فكَّرْتُ في الله تعالى ولأول مرة، وفكَّرتُ جادًّا أن أعقد معاهدة في تركِ كلِّ شيء سيِّئ في حياتي، وفتحتُ القرآن تلك الليلة، وبدأت أقرأ، وكانت المعجزة التي ساقها الله تعالى إليَّ، فوقعت عيني على قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]..

المدهش حقًّا أنَّ عيني لم تقـع إلَّا على هذه الآية تحديدًا: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، وكانت تلك الآية معجـزةً في حياتي تلك الليلة؛ لأني كنت يائسًا جدًّا، ولا أدري أين أذهب؟ ولا أين أهرب؟ وكنتُ آخر ما أفكر فيه ذلك الدِّين، ولم أكن وقتها أعرف الله، ودُهشت أنَّ هذا القرآن يعرِّفُ بطريقةٍ ما كنتُ أحتاجه بالضبط في ذلك الوقت، وفي تلك المرحلة من حياتي، وفي الوقت المناسب لحالتي، وكانت تلك هي المعجزة بالنسبة لي، فآمنت بالله تعالى، وأعلنت إسلامي، وبدأت رحلتي مع الله تعالى من جديد».

الموسيقي المشهور: رحيم جان

٣ ـ ويقول أحد البريطانيين: «ذات مساءٍ قرأتُ قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فشعرت بالدَّهشة ولمدة سنتين، حتَّى أستوعب هذه القوة الخارقة: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ثمَّ بدأت أتساءل عن معنى الحياة..

وقرأت قول الله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٥ ـ ١٦]، وبقي لدي سؤال: لمَ

وصف الله تعالى الناصية بأنها كاذبة؟ هل يُعْقل أنَّ كلَّ هذا يوجد في القرآن قبل (١٤٠٠) سنة، وثمَّة رجلٌ في صحراء لا يستطيع أن يقرأ ويعرف كلَّ هذه الحقائق!.

وما زال بي التفكير حتَّى استيقظتُ من الغيبوبة ونطقتُ بالشهادتين، وقرأتُ سورة المزمِّل، وتأثرتُ بها كثيرًا، وكنتُ في كلِّ مرة أقرؤها أشعرُ بخوف الرسول تجاه هذه المسؤولية..

وجدتُ في القرآن كلَّ الأجوبة عن أسئلتي كلِّها؛ سواء كانت على الصعيد الفردي أو الأسري أو حتَّى الاجتماعي، وسرتُ في الطريق، حتَّى أصبحتُ أفتحُ القرآن وأنا أشعر أن العَلِيَّ هو الذي يتحدَّثُ إليَّ من الملأ الأعلى، وأنه كتابٌ موجَّهٌ إليَّ، وأدركتُ في النهاية أنَّ حياةً بلا قرآن حياةٌ مفرَّغةٌ من كلِّ شيء».

٤ ـ وهذا بروفيسور ياباني يقول: «أسلمتُ بسبب قراءتي لآيةٍ من كتاب الله، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠]..

كنت في الأصل في عزلةٍ عن الخلق، وكنت أشعر بنوعٍ من الغرور والتكبُّر على من حولي من العالمين، وحينما وقعتُ على هذه الآية، وتأمَّلْتُها، تساءلتُ: لماذا علاقاتي مع الآخرين غير جيدة؟ مع أننا كلنا مخلوقون من طينة واحدة، ثمَّ بدأت رحلتي للحياة من جديد».

٥ ـ وهذا **البروفيسور جيفري لانج** يحكي قصته مع القرآن، فيقول: «كنت في جامعة سان فرانسيسكو، وكنت مع صديق، فأعطاني القرآن وعمري حينها ثمانية عشر عامًا، وبينما أنا في إحدى الليالي في شقتي الخاصة، فبدأت بقراءة القرآن الذي أهداني إياه صاحبي، بدأت فقرأتُ الصفحة الأولى، والصفحة الثانية، وبعد حوالي سبعٍ وثلاثين آية وجدت قصة بداية الخلق، وأعترف أني حين قرأتُها، قرأتُها بشكلٍ سريع جدًّا، كانت حوالي ثماني أو تسع آيات.. قصة أول رجل وامرأة في التاريخ، واستطعت حينها التعرف على بعض التفاصيل، ولم أكن وقتها مؤمنًا بالله تعالى، وكنتُ أظن أن الذي كتب القرآن لم يفهم الهدف من القصة التي أوردها!..

أتممت القرآن ثم عُدت مرةً أخرى لقراءته من جديد، فقط لأعرف ما الهدف الذي يسعى إليه

الكاتب، ثم قرأته مرةً ثالثة ورابعة، ثمَّ أدركت بعد ذلك أنَّ هناك شيئًا غريبًا يُوجب عليَّ القراءة بتركيزٍ أكثر، وفحص المعاني آيةً آيةً، وسطرًا سطرًا؛ لأنه من الواضح لي أنَّ الكاتب يحاولُ الوصول إلى شيءٍ ما، وعرفت حينها أنَّ الكلمة الواحدة في القرآن تحملُ الكثير من المعاني، ثمَّ تكوَّنَ لدي اعتقاد أنَّ هذا الكاتب يملك ذكاءً لا مثيل له..

وحين وصلت إلى الآية الثلاثين من سورة البقرة، وفيها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وكلمة ﴿خَلِيفَةً﴾ تعني في العربية: نائب أو ممثِّل عني، وأنَّ الملائكة قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وهو يقول: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]..

فجذبت هذه الآية انتباهي، وجعلتني أعيد القراءة مرارًا وتكرارًا، فالآية تقول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، خليفةً لي ووكيلًا عني، يتصرَّف وفق إرادتي، والأمور لا تسير هكذا على أرض الواقع! لأنك لم تضع

الإنسان على الأرض ليقوم بدورٍ إيجابي، أنت وضعت البشر على الأرض كعقابٍ على خطيئة، لهذا اعتقدت أن الكاتب لم يفهم القصة..

ثمَّ انتقلت إلى السطر التالي، قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، نظرتُ للكلامِ من جديد، ولم أستطع تصديق السؤال، فقلت لنفسي: بالتأكيد هذا السؤال يعبِّر عني، لماذا تخلقُ هذا الكائن، ويُفترض أن يقوم بدورٍ إيجابي لتعمير الأرض، بينما تكون عنده القدرة على فعلِ أشياء سيئةٍ جدًّا؟! سيُفسد فيها، ويسفكُ الدماء، لماذا هذا الكائن العدواني، بينما عندك القدرة على أن تخلق ملائكة؟! كما قالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، إنهم يسألون أحدَ أكثر الأسئلة أهميةً في تاريخ الأديان كلها، لماذا تخلقُ هذا المخلوق المخطئ الفاشل، هذا المخلوق الذي يتمردُ على إرادتك، ويعيث فسادًا في الأرض، أكثر من أيِّ مخلوقٍ آخر، بينما يمكن أن تجعلَ من ينزل إلى الأرض من الملائكة؟!.

وهذا السـؤال يُطرح في الجنة، كأني أقول: لماذا لا تجعلهم ملائكةً؟! ويكونون معنا في الجنة، لماذا تنزلهم إلى الأرض؟! حيث يشـعرون بالبعدِ عنك، وسيعملون عكس إرادتك، سيشـعرون بالاستقلالية والحرية لفعل ما يحلو لهـم مع الأيام، بينما يمكنك أن تجعلهم من الملائكة، وتسـكنهم الجنة، وتكون متأكِّدًا أنهم سيخضعون تمامًا لإرادتك..

نظرت للسـؤال وقلتُ: نعم هذا هو السـؤال الذي أريد طرحه، هو سـؤال في أقلِّ من آيـةٍ واحدة، ضمن قصة خلق البشـر، ولكني أرى فيه كلَّ أسـئلتي، وهو سؤالٌ يُلخِّص كلَّ ما أردت معرفته، ويُلخص في المقابل خبراتي ومعرفتي كلها في سـؤالٍ واحـد: لماذا تخلقُ إنسانًا مدمِّرًا ومخطئًا، بينما يمكنك أن تخلق ملائكة؟!.

ثـم انظـروا للإجابـة: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقـرة: ٣٠]، باللهجة العامية كأنك تقـول: أنا أعرف ما أفعل! قـرأتُ هذا، ثمَّ قلت لنفسـي بتعجُّب: هل حقًّا تعرف ما تفعل؟ إذًا من فضلك أخبرني ما الذي تفعله؟.. ثمَّ أدركتُ في النهايـة أنني أتجادل مع إلٰه

لا أؤمن به، وكان هذا يحـدث معي في كلِّ مرةٍ أقرأ القرآن، كنتُ أدخل فـي نوبات جـدالٍ ونقاشٍ مع النص المكتوب..

ثمَّ انتقلـت إلى الآية الثانية، فبدأت أكتشـف أنَّ القرآن لا يتهـرَّب من الإجابة على السـؤال، بل بدأ يُجيب عليه، حيث يقول في الآية التالية: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١]..

ثمَّ بدأتُ أعيدُ هذه الآية مرارًا، وأدركتُ حينها أنَّ آدم ليس مخلوقًا يمكنه تسمية الأشياء فحسب، بل إنه مخلوقٌ يتعلَّم، والله تعالى يُعَلِّمه..

ثمَّ بدأ القرآن يؤكِّد على قُدرة الإنسـان المعرفية، فهو مخلـوقٌ معرفي يتعلَّـم، وماذا يتعلَّـم؟ ما أهمُّ المعـارف التي حظي بهـا حتَّى الآن؟.. من سـؤال الملائكة تعرفُ أنها نعمـة اللغة؛ لأنه من خلال اللغة يمكن للإنسـان أن يتعلَّم أشـياء خارج نطاق خبراته الشـخصية، ومن ثم تصبح معارفنا تراكمية، كلُّ جيلٍ يتعلَّم من الجيل الذي يسـبقه، وسـأريكم أنَّ القرآن

يُؤكد على هذا المعنى كثيرًا، فيقول: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق: ١ ـ ٣]، والإكرام هو النِّعم التي أعطاها الله تعالى للإنسان: ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٤ ـ ٥]..

وأدركت أنَّ القرآن مرارًا وتكرارًا يحفِّز المسلمين على استخدام قدراتهم المعرفية، وهو يُقسم بالعلم واللغة، فيقول: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم: ١].. ولم يمرَّ عليَّ من قبل نصٌّ مقدَّس يُشدد على إعمال العقل بطرقٍ صحيحة، ويسخِّره لتعزيز الإيمان كما فعل القرآن..

ثمَّ استدل على حُسن اختياره للإنسان بامتحان الملائكة في معرفة الأسماء، فقالت الملائكة: ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]، كان ردُّهم أنَّ هذا الاختيار يفوق قدراتنا المعرفية.. ثمَّ نقرأ في الآية التالية: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ [البقرة: ٣٣]، ثمَّ تلاحظ مدى سهولة الأمر بالنسبة لآدم، فالكائن البشري يمتلك هذه الإمكانية الهائلة، وبكلِّ سهولة قال له: أخبرهم بأسماء هذه

الأشياء، فأخبرَهم مباشرةً: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]..

كأنه يقول لهم: نعم لديكم بعض التحفُّظات على خلق هذا البشر، ويمكنه فعل بعض الأشياء السيئة، ولكن انظروا في المقابل لهذه القدرة المعرفية الهائلة لديه، وهذا شيءٌ لم تلتفتوا إليه وتضعوه في اعتباركم، وهذا بكلٍّ وضوح هو معنى هذه الآيات..

وعلى الرغم من ذلك شعرتُ أنَّ المؤلف يأخذ أكثر القصص الوجودية في التاريخ البشري، ثمَّ يُطوعها ويستخدمها كأداةٍ لإيصال رسالته، قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]، بطريقةٍ أخرى يقول: ألم أقل لكم إني أعلم ما لا تعلمون!..

ثم يقول: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].. نظرتُ إلى هذا النص، وسألت نفسي: ما الذي أظهروه؟ وما الذي أخفوه؟ ما الذي أظهره سؤالهم؟ وما الذي أخفاه؟ ما الذي يُظهره السؤال؟ إنه

يُظهر الجانب المخطئ والسيِّئ للجنس البشري، وما الذي يخفيه السؤال؟ الجنس البشري يمكنه ارتكاب الشرور والأخطاء، وإحلال البؤس، ولكن يمكنه أيضًا في المقابل أن يفعل العكس تمامًا، يمكنه اختيار فعل الشر أو فعل الأمور الجيدة، يمكنه ارتكاب الشرور المفزعة، ويمكنه فعل الخيرات الهائلة، يمكنه الاختيار بين العيش في أكاذيب، أو قضاء حياته بالحق الأعظم، يمكنه أن يكون قبيحًا جدًّا، أو جميلًا جدًّا، وحتَّى هذه النقطة من حياتي كنت في صف الملائكة، رغم أنهم كانوا يرون نصف الحقيقة فقط..

صدِّق أو لا تُصدِّق أنَّ المرة الأولى التي قرأت فيها هذه الآية كانت بمنزلة الإبصار لأول مرةٍ في حياتي، لقد كنتُ مستاءً من حياةِ الشرِّ التي يعيشها البشر، عندما قرأتُ هذا النص للمرة الأولى، أدركتُ أنَّ هناك مثالًا حيًّا في حياتي وهو أمي، أدركتُ أني كنتُ أرى جانبًا واحدًا من الحقيقة فحسب، ثمَّ أتممتُ القصة، فإذا بي أمام خطيئةِ آدم، وأنَّ الله تعالى يعتبرها مجردَ زلة ثم يتوب عليه، ويُنزله إلى الأرض لتلك المهمة العظيمة، حينها أدركت حقيقة الأشياء، وآمنت بالله تعالى».



صناعة الحياة

(أ)

• **لن تتخيل أثرَ القرآن على نفسك، وبناءِ مفاهيمك وأفكارك، ورفع مستوى وعيك؛ إلَّا إذا تخيَّلْتَ تلكَ الأمة التي نزل عليها القرآن أول وهلة، وهي على جهلها وضياعها وفوضويتها، لترى في النهاية ما صنع فيها! وكيف نقلها من تلك الفوضى التي تعيشها، والظلام الذي يعمُّها، والتحديات التي تواجهها فكريًّا وشعوريًّا واجتماعيًّا وسلوكيًّا!.**

- يصف أبو رجاء **العطاردي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تلك الحال قائلًا: كنَّا في الجاهلية نعبدُ الأصنام والأحجار والأشجار، فكان أحدنا يعبدُ حجرًا، فإذا رأى حجرًا آخر أمثل منه، ألقى حجره وعَبَدَ الآخر، فإذا لم نجد حجرًا، جمعنا حثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثمَّ طفنا حوله. اهـ.

- وينقل لنا **جعفر بن أبي طالب** ﵁ في حديثه مع النجاشي بعضًا من مشــاهد تلك الجاهلية، فيقول: أيها الملك، كنَّا قومًا أهــل جاهليةٍ؛ نعبــد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتــي الفواحــش، ونقطع الأرحام، ونســيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيفَ، حتَّى بعث الله إلينا رسولًا نعرف نســبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده، ونخلع ما كنَّا نعبد نحن وآباؤنا من دونــه، وأمرنا بصــدق الحديــث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسْــنِ الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم. اهـ.

- وفي «صحيح مســلم»: مــن حديث عياض بن حمار ﵁، قــال ﷺ: «**إنَّ الله نظــر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلَّا بقايا من أهل الكتاب**»..

ولم يأتِ ذلك المقت إلَّا لأنه لم يكن في حياتهم شيءٌ يســتحقُّ الإجلال أو الإكرام، إلَّا تلك الجاهلية التي بلغت ذروة ظلامها.

ثمَّ ماذا؟ ثمَّ نزل هذا القرآن على تلك الأمة التي مقتها الله تعالــى، فتحوَّلت من ذلــك الضياع وتلك

الفوضى إلى أمةٍ تحمل راية هذا الدِّين، وتسترخص كلَّ شيء في سبيل قيمه ومبادئه، وتناضل من أجله، وتدفع أرواحها في سبيل نصرته وتمكينه، ويكون الإسلام هو كلُّ شيء في حياتها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

ثمَّ يهيئ الله تعالى لتلك الأمة أن تقلب موازين العالم أجمع، وتفتح فارس والروم، وشمال أوروبة، وتصل في النهاية إلى الأندلس!.

• وإذا سألت نفسك: ما الذي صنع تلك النفوس؟ وما الذي بنى تلك القيم؟ وما الذي شيَّد تلك الحضارة الكبرى؟ وما الذي أزال قشع ظلام الجاهلية، حتَّى لم تبق إلَّا أنوار الفجر التي أذن الله تعالى أنها لا تموت حتَّى تقوم الساعة؟.

كيف تحوَّلت تلك الأمة التي تتقاتل من أجل شاةٍ وبعير، وتتخاصم من أجل كلمة، وتتحارب من أجل خلافٍ في عرض الطريق، إلى أمةٍ تكتب تاريخًا مقدَّسًا، وتصنع قيمًا مُثْلى، وتفتح قلوب

العالمين في أمصار الأرض قبل أن تقاتلهم بالرمح والسنان؟!..

فلن تجد إلَّا هذا القــرآن؛ الذي أعاد صناعة تلك النفوس علــى منهج الحــق من جديــد، وبنى تلك العقائد الصلبة، وأسَّــس لذلك الوعــي، وقعَّد لتلك المفاهيم والأفــكار الضخمة، وجعــل أولئك الذين عاشوا جُلَّ أعمارهم لذواتهم وأنفسهم يعيشون لمنهج الله تعالى، ويبذلون في سبيله كلَّ ممكن، ويؤسِّسون لمفاهيــم جديدة مــن الإخــاء والبــذل والتضحية والتنافــس فــي الخير، في صــورٍ لا تتكــرر إلَّا في الأجيال التي عاشت على منهج الوحي.

قلت لك: نزل القــرآن على أمــةٍ جاهلية في كلِّ شــيء، تتخاصم وتتنازع على فتات الحيــاة، وتقيم حربًا شعواء على ناقة وشــاة! وتُنْشِئ عداوات مدى العمر علــى تفاهات، حتَّــى جاء هذا القــرآن فصنع نفوسًا لا تكاد تجد لها مثيلًا على مستوى التاريخ!.

• **لقد كانت تلك الجاهلية تدرك أثر القرآن، وتعلم شدَّة وطأته على قلوب مســتمعيه،** ولذلك بذلت في

باكر الدعـوة وقت نزوله كلَّ ما تملك ألَّا يسـمعَ له أحدٌ من قريش، للدرجة التـي يتلقفون القادمين إلى مكة، وما يزالون يحذرونهم حتَّى يضعون في آذانهم القطن خشيةَ أثر القرآن عليهم!.

حاولت تلك الجاهلية بكلِّ ما تملك، واستماتت بكلِّ ما تسـتطيع أن تقف دون أثره، ولكن هيهات! أشـاعوا في أول الأمر أنَّ هذا القـرآن الذي يأتي به محمد مجرد سحر: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف: ٧]..

وهم عربٌ، وأعرفُ بما يفعل السِّحر في النفوس والأجسـاد، ولم يجدوا وصفًا يماثل القرآن ويصف تأثيره إلَّا السِّـحر! وكم من كافرٍ ضالٍّ تعتلجُ مفاهيم الضلالة وأفكار الدَّجل وتصـورات الإلحاد في قلبه منذ وجوده على الأرض، وبقي على ذلك سـنوات عمره، ثمَّ حين تسـنحُ فرصةٌ عارضة، ويسـمع فيها كلام الله تعالى، لا يتمالك أن يُلقي بكلٍّ هذه الأفكار والمفاهيم والتصوُّرات التي عـاش عليها عمره كله، يُلقي بها جانبًا، ويعود مسلمًا حنيفًا لله تعالى!..

كم هي الأحداث التي تغمرك أفراحها ومشاهدها من دموع العائدين إلى الله تعالى، من خلال سماع بعض الآيات وليس كل القرآن!.

ـ وإذا أردت أن تعرف هذا المعنى بجلاءٍ، فتأمَّل ليلةً من ليالي الكِبْر في حياة قريش، يخرجون من الليل أفرادًا وزرافات لا يعلم الواحد منهم بالآخر، ولا الجمع بالآخر، يتهافتون على سماع القرآن، وإذا بالنبيِّ ﷺ يقرأ سورة النجم، فيسجد عند سجدتها، فيسجد كلُّ هؤلاء دون شعور، ويسقطون على جباههم بمجرد سماع آيةِ السجود، لقد أرغمهم القرآن بقوَّة تأثيره على السجود، وهم في قمة الاستكبار، وألقى عليهم جلبابه، فلم يبقَ منهم أحدٌ واقفًا، حتَّى ذهبت عنهم غشية القرآن، وقاموا يتلاومون بعد فوات الأوان!.

وفرقٌ ضخم بين من جاء يُريد الهدى، حتَّى لو كان على كفره، فيأخذ منه القرآن كلَّ شيء، ويلقي في مشاعره الهداية، وبين كافرٍ متعصِّب يقف أمام القرآن، وهو مستميتٌ على باطله، ثم يُلجئه للسجود راغمًا، ويعفِّر وجهه بالتراب، وهو في غشية الذهول!.

- ويأتي في المقابل **الوليد بن المغيرة**، أعتى هؤلاء وأشدهم عداوةً للإسلام والرسالة، وأبغضهم للوحي، فيسمع هذا القرآن، فيأخذ حظَّه من قلبه ومشاعره، فيردد قائلًا: **إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أسفله لمُغْدِقٌ، وإنَّ أعلاه لمثمرٌ، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه، وما هو من قول البشر!**.

- ويقفُ **جبير بن مطعم** رضي الله عنه أيام كفره ذات يوم، فيقرأ ﷺ قول الله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٧]، فلا يملك إلَّا أن يقول: **كاد قلبي أن يطير!** وهو أدقُّ وصفٍ لِمَا يُحدثه القرآن في قلبِ سامعه ووجدانه! وهذا في قلب رجلٍ لا يريده ولم يتعرَّض له، ولم يقف لسماعه، وليس في قلبه منه شيء، وبمجرد السماع فقط حرَّك القرآن قلبه، ووصفه وصفًا ملائمًا لحاله، فقال: كاد قلبي أن يطير! فكيف بالسامع له، والمقبل عليه، والمذعن لكلِّ ما يأتي من خلاله؟!.

• **وقد أوصى الله تعالى نبيه ﷺ: أنـــه إذا أراد أن يقتاد أحدًا لدينه ومنهجه، فليســـمعه القرآن، ويكفيه عن كلِّ شـــيء:** ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، **ثـــمَّ تقـــوم عليه الحجة، ولا يحتاج بعد ذلك إلى بيان.**

٢٩

صناعة الحياة

(ب)

• **حكى الله تعالى أثر هذا القـــرآن على أنبياء الله** ورســـله، وكيف اســـتقبلت تلك القلـــوب كتاب الله بالإجلال والإذعان، للدرجـــة التي لا يتمالك الواحد منهم عند سماعه إلَّا السجود والإذعان والبكاء، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا﴾ [مريم: ٥٨].

وهـــي حالةٌ من الإجـــلال والتقديـــس لكلام الله تعالى أصابت تلك القلوب بمجرَّد الســـماع، فيغمرُ مشاعرها بمشـــاهد الحياة، فلا تجد ســـوى الدموع والسجود، تعبيرًا لائقًا بتلك المشـــاهد التي غمرتها لحظة سماع القرآن!.

• **ومثلـه تمامًا الشعور الذي غمر الصالحين بأفراحِ هذا القرآن**، كما حكى الله تعالى عنهم قائلًا: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۩ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۩ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

وإذا تأمَّلْتَ فيما أصاب هؤلاءِ من الدهشة الغامرة بكتاب الله تعالى، ليس أن يبقى أحدهم محملقًا مدهوشًا بعظمة كتاب الله تعالى فحسب، وإنما يخرُّ ساجدًا وباكيًا وخاشعًا!.

• **فإذا ما استعرضت حال النبي ﷺ وهو يقرأ كتاب الله تعالى، ويجهش بالبكاء، وتفيض دموعه تأثُّرًا**، كما صحَّ أنه بات ليلةً من الليالي ـ وما أكثر هذه الليالي في حياته ـ يقرأ قول الله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، ويردده ويبكي طويلًا، ولصدره أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء!.

• وحكـــى الله تعالى عن قومٍ في عصر الرســـالة، كان لهم المعنى ذاته مع كتابـــه الكريم، يُتلى عليهم فلا يملكون ما يعبِّـــرون به إلَّا تلـــك الدموع، أعظم شـــاهدٍ على ما لقيـــت تلك القلـــوبُ مـــن الأفراحِ المدهشة: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]..

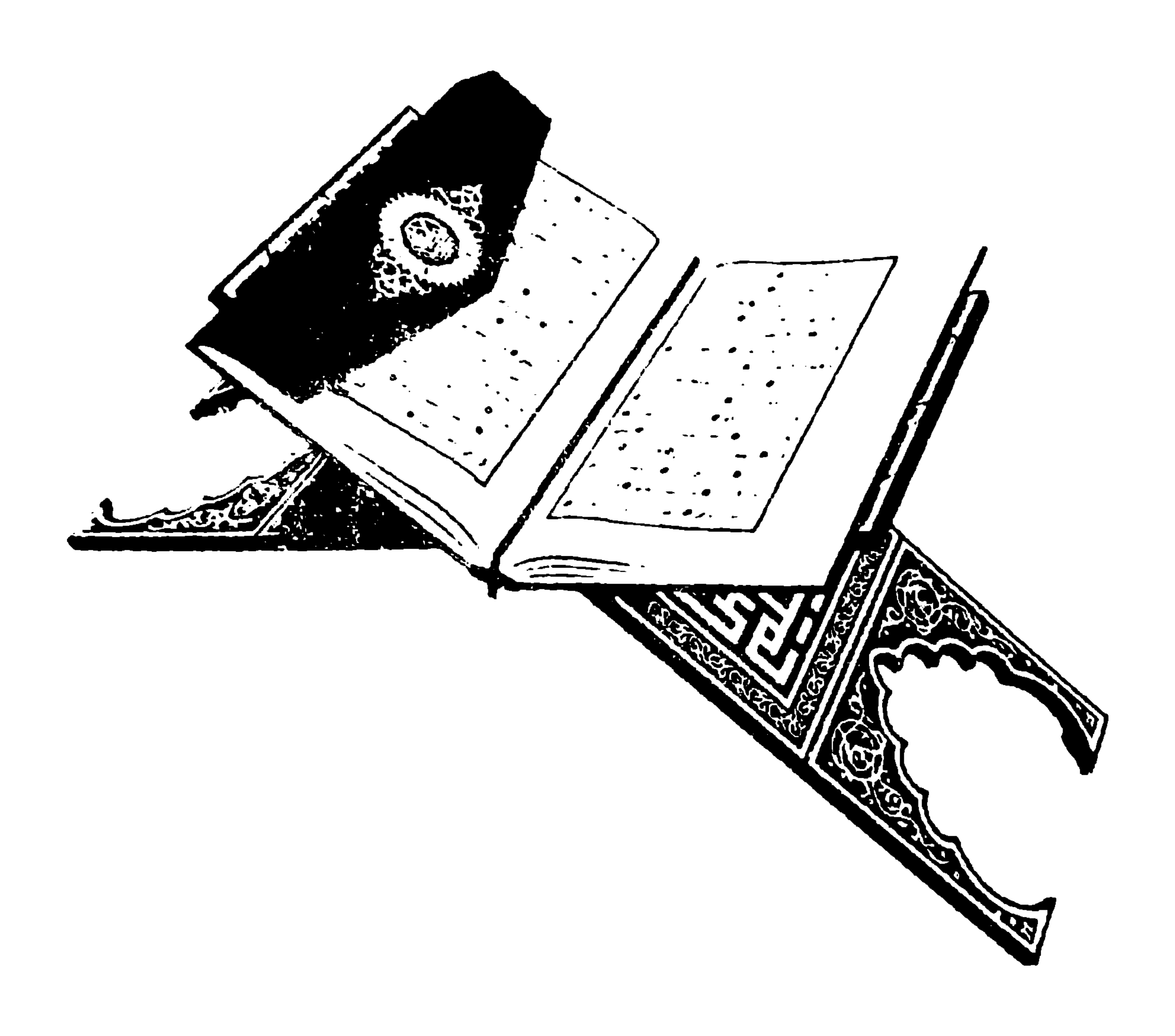
• **ويتجاوز القرآن كلَّ هذه المشـــاهد التي صنعها في الإنس إلى الجن**، وتجري عليهم المشاهد ذاتها أو قريبًـــا منها، قال تعالـــى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

المدهش فـــي هؤلاء: أنهـــم أدركـــوا جلالة هذا القـــرآن، وعظمته ومكانتـــه، وقاموا بحـــقِّ ذلك من الأدب: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

ثمَّ قاموا له بواجب العمل بمجرد سماعه: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]!.

وحكى الله تعالى عنهم في سورة الجن حالةً من الجلال والجمال، والشعور بقيمته في نفوسهم، فقال تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١ ـ ٢].

وكم هي المرات التي نحتاج فيها إلى بعض معاني هذا الجلال: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن: ٢]!.





والله الذي لا إلٰه غيـــره! ما نزلت آيةٌ من كتاب الله إلَّا وأنا أعلمُ أيـــن نزلت، وأعلم فيم نزلت، ولو أعلـــم أنَّ أحدًا أعلم بكتاب الله مني تناله المطي لأتيتُه.

ابن مسعود رضي الله عنه



القرآن والإنسان

• إذا تأمَّلْتَ في كتاب الله تعالى، فسترى كيف أنه عُني ببناءِ الإنســـان، بدءًا من ذاته، ثـــمَّ وضع الأطر والأسس المنظِّمة لبنائه الأسري، ثمَّ تجاوز ذلك إلى بناءِ علاقته مع أرحامـــه، ومَنْ حوله من العالمين، في منظومةٍ من الجمـــال والجلال لا تـــكاد تراها إلَّا في القرآن!.

- اعتنى القـــرآن بالإنســـان، فأجاب عـــن أعظم الأســـئلة التي تواجهه في حياته، فقـــال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

- وشرح له كيف يحقق تلك العبودية بدءًا بالقضية الكبرى: التوحيد، فقـــال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

- ثمَّ الصلاة والزكاة، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

ـ ثمَّ فريضة **الصيام**، فقــال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ـ ثمَّ **الحج**، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ـ ثمَّ بيَّن له **قدوته الكبرى** في هــذا الباب، التي لا ينبغي أن يجاوزها في شيء، فقال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ـ وعرض له جملــةَ **الأعداء** الذين ســيواجهونه، ويقفون أمام أمانيه الكبار، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ ﴾ [فاطر: ٦].

وقال تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [صٓ: ٨٢ ـ ٨٣].

بل دلَّه على أعظم وســيلتين يســتخدمهما عدوه معــه: الوسوســة، والزينــة، كما فــي قولــه تعالى: ﴿ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠].

وعرض له بقيةَ الأعــداء، كما في قوله تعالى عن المنافقين: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

وقوله تعالى في اليهود والمشركين: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢].

وقوله تعالى في النصــارى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ـ ثــمَّ بيَّن له كيــف أنَّ الإنســان فُطــر على حبِّ الأصدقاء ومخالطة الآخرين، فرغَّبــه أولًا في **مصاحبة الصالحين**، ولزوم طريقهم، فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وإن كانت هذه الآية في الأصل لرسوله ﷺ، ولكنها عامةٌ فيه وفي غيره، كما هو شأن القرآن في ذلك.

وحذَّره غاية **الحذر من أصدقاء السوء**، فقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٨].

ـ وعرَّفه بمسؤولياته المختلفة؛ تجاه نفسه أولًا، كما في قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٤ ـ ١٥].

ـ وشرح له السُّنن الإلهية التي تؤكد على هذا المعنى الكبير، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

ـ ودلَّه على طُرق الفلاح والرشاد التي تصون له مستقبله، وتبني له آماله الكبار، فقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧].

ـ وشرح له مقومات **الأخلاق الفاضلة** كما في وصية لقمان لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

ـ وأوصاه بمن كان أصل حياته، فقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ [لقمان: ١٤].

- **وذكَّره برقابة الله تعالـى التي هي أكبر مقومات الفلاح**، فقال تعالى: ﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦].

- **وذكَّره بأعظم ركن في الإسـلام**: ﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [لقمان: ١٧].

- ودلَّه على أن يكون فاعلًا مؤثرًا في واقعه، فقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧].

- وأعلمه أنَّ آثار هذه الفاعلية مكلفة، وتحتاج إلى أخلاق الصابرين: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧].

- **ثمَّ حذَّره من جملةٍ من الأخلاق**، فنهاه عن جملةٍ من الأخـلاق الرذيلة، فقـال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [لقمان: ١٨].

وقال تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٩].

- **ثـمَّ بيَّن له أصـول الحلال والحـرام في مأكله ومشـربه**، فقال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ـ وعرَّفـه بأثر المـال وأهميته، وذكَّـره بالقاعدة الكبرى في إدارة شأن ذلك المال، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩].

ـ ثمَّ أكد عليه مسألة الشورى، وجعلها من أخصِّ صفات أهل الإيمان، فقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

ـ وبيَّن له كيف يتعامل مـع والديه أخصِّ النَّاس به، وأولاهم ببره وإحسانه، فقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ثمَّ تخطَّى بعد ذلك إلى رحمـه وأقاربه، فحذَّره غاية الحذر من التفريط فيهمـا، فقال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢ ـ ٢٣].

ثمَّ وضعَ له القاعدة الكلية فـي هذا الباب، فقال

تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وبيَّن له أنه يمكن أن يأخذ بحقه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦].

وأنَّ الصبر أجل وأعظم وأرقى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٣٩ ـ ٤٠].

ـ وذكَّره بمسؤولياته الكبرى عن نفسه وجوارحه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

• وإفراد هذا المعنى فوق ما يجري به القلم، وإنما قصدنا الإشارة إلى بعض تلك المباهج والمشاهد فيه فحسب.



القرآن والأسرة

• يمكنك وأنت تستعرض كتاب الله تعالى أن ترى كيف أنَّ هذا القرآن بنى الجانب الأسري، ورتَّب شؤونه، وأقام مناهجه، ووضع أطره، وبيَّن سبل النجاح فيه.. وعرض جوانب الإخفاق، ثمَّ سنَّ القوانين الكفيلة بالمحافظة على جمالياته، والحذر من كلِّ ما يؤثِّر في ذلك البناء، أو يسهم في ضياعه.

ـ تحدَّث القرآن أولًا عن الأسرة، وذكَّر بأن الله تعالى شرع هذا الزواج، وجعل فيه من الودِّ والرحمة والسكينة، ليكون أولى لبنات البناء الأسري، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].



- **وجعل شأن الأسرة إلى الرجل**، في صناعة مستقبلها، والقيام على شؤونها، فقال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ [النساء: ٣٤].

- **وذكَّره بأنَّ لكلٍّ منهما حقوقًا على الآخر**، فقال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

- وبيَّن بأن الوالدين **أعظمُ مقوِّمات هذه الأسرة**، وحقهما أعظم الواجبات بعد توحيد الله تعالى، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ۝ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤].

- وعرض للأبناء **أعظم نموذج في التعامل مع الآباء**؛ سيرة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وكيف كان يصنع مع والده، كما في سورة مريم والشعراء والأنعام، وكلها تفيض بالحبِّ والجلال، والحرص على القيام بحقوق الأبوة، مع أنَّ والده كان كافرًا!..

ـ ثمَّ بيَّن أهميــة صلةِ الأرحام والأقــارب، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ [الرعد: ٢١].

وحذَّر غاية التحذير من قطع تلك الصلات، فقال تعالــى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢ ـ ٢٣].

• فكيف بك إذا قلَّبت آيات وســورِ هذا القرآن؟ لترى كيف اعتنى بالأسرة، فسنَّ أنظمة وقوانين تكفُل نجاح النظام الأسري، وتحقق له استقراره:

ـ فحــض على الــزواج ورغب فيه، فقــال تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء: ٣].

وقــال تعالــى: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ﴾ [النور: ٣٢].

ومن لم يكن له ســبيل إلى هــذا المعنى الكبير فليجتهد في الصبر حتى يجد ما يغنيه مع الأيام، فقال تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور: ٣٣].

- وحضَّ على حفظِ المرأة من كلٍّ ما يُعَرِّضها للمساس بحريتها وعفافها وطهارتها، فحرَّم النظر غير الشرعي إليها، وأوصى بحفظ الفروج، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

وأمرها بغضِّ بصرها عمَّا يعرض لها، فقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

ثم ذكَّر بأبعد من ذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

- وحرَّم الزنى، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وشرع أعظم الرَّوادع لمن وقع فيه، فقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

• ثمَّ إذا سرَّحت بصرك في سوره ومشاهده، سترى كيف رتَّب عقد الزوجية، وفصَّل معانيه، وبيَّن حقوقه، ووضع الأطر الكفيلة بحفظه من الضياع:

ـ فبناه على الحبِّ والـود، وأجرى فيه الرحمة إلى أقصى مدى، كما في قوله تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وقـال تعالـى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ـ ثمَّ افترض عدم وجود هذه المشـاعر، وحصول شيءٍ من الكره بين الزوجين، فأرشد إلى بُعدِ النظر، وأنَّ ذلـك من الخيـر لصاحبه، فقـال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

ـ ثم بيَّن عند تعذُّر اللقـاء، ودوام الود أنَّ **الطلاق** يكفيكم مؤونة النزاع والشـقاق، ثمَّ لـم يجعله كلمةً واحدة تبدد تلك العِشرة، وتقضي على ذلك الأُنْس في كلمة، وإنما جعله أكثر من واحدة، فقال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ولأنـه مظنةُ الغضـب والنزاع، حـذَّر القرآن من الظلم فيه، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢٢٩].



ثمَّ توسَّــع إلى أكبر من ذلك وأجلَّ، فذكَّر الزوج بألَّا ينسى أيام الودِّ والحبِّ والجمال، ولحظات الأُنْس التي مرَّت في غابر الزمــان، فقال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

• **فإذا ما زدتَ من وقتك لمطالعة هذه المشــاهد التي يعرضها كتاب الله تعالى، أدركتَ ما يصنعُ القرآن في واقعك.**



القرآن والنظام

• لعل من المشاهد المدهشة في كتاب الله تعالى: عرضه للأنظمة التي تكفل الأمن، وسلامة المجتمعات من الفوضى:

ـ فتجده مثلًا يُقرر مبدأً عامًّا في هذا المعنى الكبير، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٧٩]. ويبيِّن أنه لا يحقُّ لإنسان مهما بلغ مقامه، أن يعتدي على آخر، وأنَّ كلَّ ذلك منوطٌ بشريعة القصاص؛ تأخذُ حقَّه، وتردُّ له كرامته، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [المائدة: ٤٥].

لا فرق بين عربي ولا عجمي، ولا مفاضلة للون ومجتمعٍ ومكانة، ولا عبرة بالفوارق، إلَّا في حدودٍ



ضيقة جـداً، ولمصالح عظمى في شـريعة الله تعالى فحسب.

ولك أن تتخيَّل هذه المباهج التي يعرضها القرآن، فيحفظ بها كرامة الإنسان، ويقيم له أمنه، ويعينه على الحياة، ولا يسمح بأيٍّ اعتداءٍ عليه، إلَّا ما كان يجري وفق الاعتبارات المشار إليها في آيةِ القصاص.

- بل تجد أنَّ القرآن شـرعَ حفظ المال ما دام في حـرزه المعتبر في شـريعة الله تعالى، كمـا في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨].

وحرَّم الاعتداء علـى كرامةِ الإنسـان من خلالِ الفواحش والشهوات، وردعها بأقسى العقوبات، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ ﴾ [النور: ٢].

ثم بيَّن أن هذا الحدَّ لا يُقام إلَّا بوجود طائفةٍ ترى كيف تعاقب الشـريعة وتزجر المعتدين، حتَّى تحتاط في مستقبل الأيام، فقال تعالى: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢].

بل حرَّم مجرد التهمة الخادشة لعرضه، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤].

وذكَّر بأن مجرَّد الإرادة القلبية لحبِّ الفاحشة في الذين آمنوا موجبةٌ للعذاب في الدارين، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [النور: ١٩].

وشرع حفظَ البيوت من تســوُّرِ أسوارها، والعبث بحرماتها، حتَّى بين الزوجين، فحــرَّم الاعتداء على بعضهما بالتهم الكاذبة، وحرســها من الأوهام، فقال تعالــى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [النور: ٦ ـ ٩].

ـ **وبيَّــن كذلك حرمةَ المال،** ونهــى عن الاعتداء عليه، بأيِّ صورةٍ من الصور، أو شكلٍ من الأشكال،

فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وشدَّد على حرمة أموال اليتامى، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠].

وشدَّد في أمر الربا، كما في قوله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وجعل صاحبه يقفُ في أسوأ المقامات يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وأمر بحفظ الديون، وكتابة شؤونها في آيةِ الدَّين من سورة البقرة، وهي أطول آيةٍ في كتاب الله تعالى.

ـ وأمر بالقتال في سبيله تعالى من قاتلك، وحرَّم في المقابل الاعتداء على هؤلاء المعتدين إلَّا بالحق، فقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]..

• إلى صورٍ ومشاهد كثيرة جدًّا، بسط فيها القرآن منهج الله تعالى، وبيَّن لقارئــه منهجًا متكاملًا، وأمدَّه بالمفاهيم والأفــكار، والتصوُّرات التــي تعينه على العيش في أجمل صوره، وأبهج معانيه.



القرآن والحضارة

(أ)

• واحدٌ من الأسئلة المهمة: ما شأن القرآن بالحضارة، وبناء المستقبل؟ هل يستطيع القرآن أن يشكِّل لنا صورةً متكاملة في معنى البناء الحضاري، ويقدِّم لنا تصوُّرًا حضاريًّا في بناء الدول والمجتمعات؟..

إنَّ واحدةً من أضخم مشكلاتنا التي تواجهنا: الظن أنَّ كتاب الله تعالى مجرد كتاب لجمع الحسنات، وحصول البركات الشخصية، ولا علاقةَ له في البناء في شيء!..

ويفهم القارئ في مراتٍ من قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤]؛ أنَّ هذا خاصٌّ بما بينه وبين الله تعالى؛ من صلاةٍ وصيامٍ وحجٍّ وتلاوةٍ وصدقة، وفاته أنَّ هذا المعنى يجري في تفاصيل

الحيــاة كلِّها، دون تفريــق، بدءًا بمفاهيمــه وأفكاره وتصوراته، وانتهاءً بســلوكه وتعامله مــع العالم من حوله، بما في ذلك الطريق والمنهج الســالك به إلى بناء مســتقبله، ونجاحه في الدارين، وليس هذا على مستواه كفرد، وإنما نموذجٌ صالحٌ للمجتمعات والأمم والأفراد لا فرق!.

• **حين نزل هذا القرآن على نبينا ﷺ نزل يُنظِّم له الحياة كلها**، من أصغر قضية فيها إلى أكبرها لا فرق، وما كان ﷺ ليتصرَّف إلَّا وفق الوحي، وإذا أخطأ في تصــرُّف أو عمــل أو قضيــة، نــزل القــرآن موجِّهًا ومصحِّحًا، ورادًّا له إلى الطريــق الذي يمثل المنهج الشــرعي الصحيح، حتَّى في التعامل مع من حوله، ولذلك يعدُّ هذا القرآن هو الدســتور الذي ينبغي أن يُسار وفقه في كلِّ شيء.

ـ وفي ضوء هذا المنهج اختار الله تعالى هذه الأمة لتكون هــي قائدة الأمم، قــال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ـ ثمَّ قرر القرآن: أنَّ أعظم مقوماتِ التطور الحضاري في أيِّ أمة من الأمم، قضية **القراءة والبحث العلمي**، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]..

وهي أول ما نزل من القرآن على أعظم الرسل، فكيف إذا كان القرآن يُؤكد على مسألة الاستخلاف الكبرى، وأنَّ هذا الإنسان هو محور وقاعدة هذا الاستخلاف؟! كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].

وآيات تسخير الكون لهذا الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠].

- وبيَّن له أنَّ الدنيا وسيلة للآخرة، فقال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [القصص: ٧٧].

- وأمره بالسعي في الأرض، وحرثها على الوجه الصالح، واستثمار كلِّ ما فيها، لإقامة منهج الله تعالى، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

- وجعل وراثة الأرض منوطةً بالعمل الصالح فيها، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

- ثمَّ عرض نماذج كثيرة، ومتنوعة من التاريخ على مستوى الأمم والأفراد، بعضها يمثل منهج الحق، وكيف استقامت لهم الحياة فيما بعد، كما في قصةِ قوم يونس: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يونس: ٩٨].

وبعضها يمثلُ مشاهد الانحراف عن المنهج، وكيف آلت إلى الضياع، كما في قوله تعالى:



﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٥ ـ ١٦].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٣].

ثمَّ بيَّن القرآن أنَّ هذه المشاهد ليست خاصةً بأولئك المعرضين، وإنما تجري صورها ومشاهدُها في كلِّ معرضٍ إلى يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤].

ـ وبيَّن الله تعالى أنَّ حظوظ كلِّ أمةٍ من الفلاح منوطةٌ بتحقيقها لمنهجه سبحانه في الأرض، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وأنَّ النكوص والتفريط في هذا المنهج مؤذنٌ

بالضياع، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقرَّر سنةً ربانية كونية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

وبيَّن تعالى أنه قد يثري واقعًا بالحياة والنعم؛ لينظر كيف يكون قيامهم بالمنهج، فقال جلَّ في علاه: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ۝ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ۝ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥ _ ١٧].

• وإذا كان هذا على مستوى الأمم، فقد عرضَ نماذجَ للأفراد، كما في قصةِ قارون، وكيف أنَّ الله تعالى منَّ عليه بالنعم، حتَّى عجزَ عن حمل مفاتيح الخزائن التي يملكها فئامٌ من الرجال، ثمَّ لمَّا لم يشكر الله تعالى، أجرى عليه سننه التي لا تتخلف، فقال تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]. والله المستعان!.



القرآن والحضارة

(ب)

• **في ضوء تأكيد القرآن على مسألة الخلافة في الأرض عرض للأمة النموذج التطبيقي لهذه الخلافة على يد أبينا آدم**، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وبيّن القرآن من خلال هذا المنهج لبني آدم المعركة التي دارت بين أبيهم وإبليس: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٥ ـ ٣٦].

ثم بيّن كيف أن الله تعالى تاب عليه: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

ثمَّ قرر إنزاله إلى الأرض واســتعمارها من خلال هذا النموذج، وبيَّن له مــاذا يصنع، وكيف يصل إلى إقامة منهجِ الله تعالــى، والأخطار تحفُّ به في طريق الوصول: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩].

وأنَّ مشاهدها ستجري في الســياق ذاته، مع كلٍّ واحدٍ من أبنائه على الأرض، كما في قوله تعالى على لسان إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

• **ثم بيَّن القرآن أنَّ الله تعالى بعث للأمة نموذجًا صالحًا للاستخلاف**، ويملك مشــروعًا واضحًا بيِّنًا، وأكَّد على متابعة هذا النمــوذج الأمثل، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧١].

وشدَّد على طاعته، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وبيَّن في المقابل أنَّ مخالفة هذا النموذج هي الضَّياع والهلاك بمختلف صوره وأشكاله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ١٤]، والله المستعان!.

- ثمَّ تولى الله تعالى تقييم هذا النموذج، وتقويمه، حتَّى يكون المنهج الحضاري واضح المعالم، خاليًا من الأخطاء، صالحًا للحياة، وإذا استعرضت كتاب الله تعالى فستجد مشاهدَ هذه القدوة، وكيف تولى الله تعالى تقويمها خلال تلك الحقبة من الزمن، حتَّى يكون مثالًا صالحًا للاقتداء، حين عبس في وجه ابن أم مكتوم، لمصلحة الدعوة، وخوفًا من ضياع فرصةٍ من فرصها،

نزل القرآن يذكِّره بأنَّ هذا التصرف خطأ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ [عبس: ١ ـ ٧].

وإذا قرأتَ هذه الآية بوعـــي، وجدتَ منهجًا واضح المعالم فـــي التعامل مع الآخرين، ويضـــع قواعد متينة للطريق، وأنَّ المقبل على الدعوة الراغب فيها، ولو كان معوَّقًا؛ أثمن لها ألف مرة من الكبير والمسؤول وصاحب الوجاهة المعرض عنها، والرَّاغب عن مباهجها.

ـ وقُلْ مثل ذلك في تصحيح التعامل مع المنافق والمنافقين، حين مات ابن أبي ســـلول، وصلى عليه النبي ﷺ، نـــزل القرآن يُعيد لبنـــات التصورات لدى رســـول الله ﷺ، بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة: ٨٤].

ـ فضلًا عن عرض التصوُّرات الكبرى في التعامل مع المســـلم والمنافق والكافر، كمنهج حياة، كما في قوله تعالى في التعامل مع الكفار كمثال: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

أو في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

• **فإذا واصلت بصرك في آياته، وجدت أنه يَعرضُ نماذج وتجارب تطبيقية لصناعة الحضارة، من خلال حال الأمم في تعاملها مع رسلها، ويضع منهجًا واضح المعالم، بيِّن التصوُّرات في العواقب المترتبة على ذلك التعامل توفيقًا أو خذلانًا**، ولن يتكلف الدَّاعية في طلبِ منهجٍ لدعوته، ومشروعه في واقع الأرض، والقرآن بين يديه، حتَّى إنه ليملِّكه التصوُّرات الكبرى: كيف يبدأ؟ ومن أين يبدأ؟ وماذا يصنع؟ وعلى ماذا يركِّز؟.

مع قصصٍ وتجارب وخبرات على مستوى الأفراد والأمم والمجتمعات، فضلًا عن صياغة منهجٍ كامل التصوُّرات، في بناءِ الأسرة من حيث النكاح والطلاق والإيلاء والعدة والرضاع والإحداد، وكلٍّ ما يتعلق بشؤون الأسرة في ذلك، حتَّى ليصوغَ لك الحلول الصالحة كمنهجٍ للتعامل في مالك مع الآخرين.

• فكيف إذا أردت منهجًا محكمًا في السنن الإلهية، والقوانين الكونية المحكمة التي لا يمكن أن تتبدل أو تتغيَّر؟!:

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

و: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

و: ﴿الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٢].

وقوله جلَّ في علاه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

فضلًا عن المفاهيم الكبرى التي يُقررها حقائقَ لا تقبل التغيير:

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].



وقوله سبحانه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

فضلًا عن حقائق الجزاء والحساب، والثواب والعقاب.

• **وأنت ترى من خلال هذا العرض: أنَّ القرآن ليس كتابًا عاديًّا، وإنما هو كتاب يقرِّر ويبيِّن، ويُفصِّل ويوضِّح كيف تقوم الحضارات الكبرى،** وتبسط معالمها ومقوماتها الحضارية، ويعرض مناهجَ وأسس بنائها، ويبيِّن كلَّ هذا من خلال قدواتٍ حية صالحة لذلك المعنى الكبير.



لماذا القرآن؟

• إنَّ القرآن يُقدم لك التصورات الحقيقية عن الحياة، ويَحُلُّ كلَّ إشكالاتك التي تواجهها في الطريق، ويمدُّك بالمفاهيم الصحيحة والأفكار الناهضة، ويقف بك على أرضٍ صلبة من هذه المعاني الكبار، ومَنْ جرَّب أدرك كيف تأتي تلك الأماني الكبار في نفوس أصحاب القرآن!.

ـ واحدةٌ من القضايا الكبرى التي يصنعها القرآن في حياتك: أنه يبيِّن لك عن سرِّ وجودك في الحياة، ولماذا جئت إلى الأرض؟ وما دورك؟ وماذا يُنتظر منك خلال فترة وجودك؟.

وهذه هي الأسئلة الجوهرية التي يحتاجها كلُّ إنسان، ويبقى دون الإجابة عليها في ضلال، ولذلك لمَّا بَعُد البعض عن كتاب الله تعالى، تاهتْ عنه هذه الأسئلة، وضاع عن أعظم الغايات من وجوده، وأخذ يُردِّد:

جئت لا أعلم من أين.. ولكني أتيت

ولقد أبصرت قدّامي طريقًا فمشيت

وسأبقى ماشيًا إن شئت هذا أم أبيت

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري!

ولو أنه قرأ كتـــاب الله لأدرك الجواب دون عناء، قال تعالى مبينًا السرَّ الكبير من خلق الإنسان: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

والعبادة التي أرادها الله من الإنســـان ليست تلك العبادات التي يؤديها في المسجد فحسب، وإنما أراد منه الخلافة الكبرى، والغايات العظمى، فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ولمّا اعترض الملائكة على عـــدم قدرته على هذه المهمة الضخمة: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

بيَّن الله تعالـــى مكانتـــه، وغايته التـــي خُلق من أجلها، فقال: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ثم أقام البينات الدالة على تلك القوى التي ملَّكه إياهـــا، قـــال تعالـــى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

وبعث إليه الرســـل، وأنزل عليـــه الكتب، وكلَّفه بأضخم المهمات، فكيف يأتي بعد ذلك ســـائلٌ تائه عن ســـرِّ وجـــوده؟! وهو أبيـــنُ ما يكون فـــي كتابه الكريم!.

- **هذا القرآن يبيِّن لك أعداءك في صورةٍ واضحة،** ويرتِّب لـــك هؤلاء الأعداء بناءً على شـــدَّة خطرهم، ويفيضُ لك في كشفهم حتَّى كأنك تراهم رأيَ عين.

- **ويصنعُ لك معتقداتـــك الكبرى** التي تصنعُ لك كلَّ شيءٍ في النهايات.

- **يمـــدُّك بالقيم والمبـــادئ الكبـــرى،** ويهدمُ كلَّ الأوهام التي تعرضُ لك فـــي الطريق، ويبيِّن لك من تُصاحب، وكيف، وما الغايات الكبرى من الصحبة.



- **يستعرضُ لك السنن الإلٰهية**، وعادة الله تعالى في خلقه وكونه، والصراع بين الحقِّ والباطل، وكيف ينصر الله تعالى أولياءه، ومتى يُديلُ الباطل على أهل الحق، وكيف..

- **ويشرحُ لك كيف تتعامل مع من حولك** بدءًا بوالديك، ورحمك، وأسرتك، وولدك، ثمَّ جيرانك وعامة من حولك من العالمين، بل يضعُ لك ميزانًا دقيقًا في التعامل مع الكافر فضلًا عن المنافق والفاسق!.

- **المدهش أنه يعرضُ لك تجارب الناجحين والمخفقين على حدٍّ سواء، ويمنحك أدوات التفوق والنجاح، ويبين لك عن أدوات الفشل والإخفاق**، ويُريك مصير الفريقين في صورٍ واضحة بيِّنة لا تحتاج إلى شيءٍ من الشرح والتفصيل.

- ولو لم يكن فيه إلَّا أنه **عرض الآخرة عرضًا متنوِّعًا مدهشًا واضحًا** ـ حتى لكأنك تراها رأيَ عين ـ لكان كافيًا، فكيف وقد وضع الله تعالى فيه كلَّ شيء؟.

• **إنَّ السـرَّ الكامن في كتاب الله تعالى أنه يصنعُ لك كلَّ شيء**، تقرؤه فتجد مشـاهد الحياة في قلبك ومشـاعرك، وترتقـي مفاهيمـك وأفـكارك، وتُبنى تصوُّراتك، وتبقى عالِمًا بكلٍّ ما حولك، وتمضي كل خطوةٍ في طريقك، وأنت تـرى نهايات الطريق، كما ترى بدايته لا فرق.



الطريق إلى القرآن

• **لعلك تقول: بعد كلِّ هـذا التطواف في مباهج القرآن، تبـرز جملةٌ من الأسـئلة المهمة: ما الطريق؟ ومن أين؟.**

كيف نبلغُ تلك الآمال التي نرقبها، والأشواقَ التي نتلهَّف لها، والأماني التي تعصف بقلوبنا إلى أقصى مدى؟.

هل من طرق يمكن أن نَسلُكها إلى تلك الغايات الكبرى؟.

ـ يجب أن يدرك كل إنسـان أنَّ هـذا الوحي هو الحيـاة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ليست المسـألة حرفًا يُتلى، أو سـورةً تختـم، أو جزءًا من الأجزاء يتم، وإن كان الفرح بهذا مشروعًا، لما يصنعه

من حسنات في واقع صاحبه، ولكن ما يراد من الوحي أجلُّ من هذا بكثير، ووعي الإنسان وإدراكه بأنَّ الإقبال على هذا القرآن تلاوةً وتدبُّرًا وسماعًا، واستشفاءً وفهمًا وعملًا؛ مؤذنٌ بالغايات الكبرى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، كفيلٌ بإذن الله تعالى بقَبول أيِّ مقترح يُسهم في الوصول إلى هداية القرآن، وفرقٌ بين إقراركَ بهذه الحقيقة، وبين إيمانك بها، واعتبارها كلَّ شيءٍ في حياتك!.

وأجزم أنَّ هذه الحقيقة هي القاعدة للوصول إلى الأحلام التي نرومها من كتاب الله تعالى.

• ولو أنك اليوم التقيت مجموعةً مختلفةً من النَّاس، لم تتكلَّف معرفة رغبتهم في ذلك المعنى، وربما تلهفهم لتلك الأمنية، ولكن بات من الضروري أن ندرك أنَّ المسألة بحاجةٍ إلى **مجموعةٍ من الآليات التي تُسهم في الوصول إلى نهاية الطريق**، وهي كفيلةٌ بإذن الله تعالى مع الأيام بأن تخلق لنا ما نريد من كتاب الله تعالى، ولعلِّي أعينك ببعض تلك **الخطوات، والطرق** التي تُسهم في إقبالك على كتاب الله تعالى مع الأيام:

- **أولًا: اليقين بأنَّ هذا القرآن كتاب حياة، ومصدر إلهامٍ وتوفيق**، وأنه لا يمكن بناء مستقبلك الكبير إلَّا من خلاله، وأنه أعظم مصادرِ البركة في وقتك وعمرك، وبيتك وعملك، ومشروعك وفكرتك، وكل شيءٍ في حياتك، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وهذه الحقيقة قد لا يَختلف فيها اثنان نظريًّا، ولكن ترى ذلك التباين الكبير في العمل والتطبيق، وفرقٌ بين من يؤمن بأنَّ بركةَ يومٍ من عمره مع كتاب الله تعالى - فضلًا عن عمره كله - أعظم من أيامٍ كثيرة يخلو منها هذا المعنى الكبير، وبين آخر يراه مجرَّد حرفٍ قد يأتي من خلاله حسنات!.

هذا اليقين يحتاجُ من صاحبه قراءة نصوصِ الوحي الدَّالة على ما في كتاب الله تعالى من مباهج، وتنمية ذلك من خلال قراءةِ كلِّ كتاب يُعرِّفك بهذا المعنى العظيم، ويدلُّك عليه، ويفتح لك آفاقًا في معانيه، ثم إدمان سماعِ ورؤيةِ كلِّ ما له به صلةٌ خاصة تلك المواعظُ أو التجارب أو التطبيقات المبثوثة في

الشـــبكة العنكبوتية، وهي تزيد كلَّ لحظة، فضلًا عن كلِّ يوم، وكلِّ عام.

- **ثانيًا: أن نقتطع لكتابِ الله تعالى من سنامِ أوقاتنا، وأجلِّها، وأهمها، وأكثرها**، وأن نعتقد الصورة التطبيقية التـــي ذكرها الضِّياء المقدســـي، حين قـــال: أوصاني شـــيخي فقال: أكثِر من قراءة القرآن، ولا تتركه، فإنه يتيسَّـــر لك الذي تطلبه على قدر ما تقرأ، قال الضِّياء: فرأيتُ ذلك، وجرَّبته كثيرًا، فكنـــتُ إذا قرأتُ كثيرًا، تيسَّر لي من ســـماعِ الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ، لم يتيسَّر لي شيءٌ مثل ما كان. اهـ.

ويجب أن نعـــي أنَّ كلَّ الأوقـــات التي تُصرف في تلاوته وتدبُّره وفهمه، هي أثمن الأوقات، وأكثرها بركةً على حياتنا الشخصية، والأسرية والاجتماعية والعملية.

ليس بالضرورة أن نبدأَ دفعةً واحدة، بحيث نقتطع مثلًا ثلاث ســـاعات مـــرةً واحدة، ولكـــن وجود هذا الاعتقاد يمكننـــا أن نبدأ، ولو بالقليـــل، فإن التدريب والتأهيل من عشـــر إلى عشـــرين دقيقة يومية في هذا المعنى، كافية في البداية بأن تصلنا به، وتخلق حبًّا له،

وتصنع شعورًا مُدهشًا بأثره، ثمَّ نحاول في كلٍّ مرة أن نزيد ولو يسيرًا، حتَّى تتحوَّل تلك الدقائق التي نبذلها فيه إلى متعةٍ يصعبُ التفريط فيها، أو التنازل عنها مع الأيام، وهذه الأوقات المبذولـــة يمكن أن يكون منها تلاوة، وأخرى حفظًا ولو بضع آيات قليلة، وثالثة تدبُّرًا وتأمُّلًا، ولو ســورة من قصار جزء عمَّ في كلٍّ أسبوع، مرةً من كتاب تدبُّر، وأخرى من خلال مسموع، وثالثة من خلال مشهد مرئي، حتَّى تستقر معالم تلك السورة في قلبك، وتجد لها رواءً في مشـــاعرك، وتشعر بلذة القرآن في مستقبل أيامك ولياليك.

ـ **ثالثًا: أن نُدمن الدعاء، ونصـــدُقَ مع الله تعالى،** ونحسن التوجُّه إليه، ونسأله طويلًا، ونلحَّ عليه كثيرًا، حتَّى يأذن الله تعالى بصلاحِ هذه القلوب، فتفرح بكلٍّ اللحظـــات المصروفةِ في ســـبيله، وقد قـــال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وفي «جامع الترمذي» وحسَّنه الألباني: من حديث ســـلمان الفارســـي، قـــال ﷺ: «**إنَّ الله حيـــيٌّ كريم، يستحيي أن يبسط العبد يديه إليه، فيردهما صفرًا**».

- **رابعًا: علينا أن نفرضَ علاقةً وطيدةً مع تفسير كلام الله تعالى وتدبُّره، وألَّا نقتصر على مجرد التلاوة، أو الحفظ المجرَّد**، من خلال اختيارِ بعض المختصرات في البداية، تكون مناسبةً لفكرك، وثقافتك وعلمك، وهي بحمد الله تعالى مبثوثةٌ ومنتشرة ومطبوعة، وفي الإمكان الوصول إليها.

ثمَّ لتبدأ علاقتك بالتفسير، بقراءة تفسير سورة الفاتحة، أو المعوِّذات، كلَّ يومٍ سورة أو كلَّ أسبوع، والتأمل في معانيها، وقراءة أكثر من تفسير أو كتاب، تدبَّر في السورة؛ فتأتي مثلًا إلى سورة الإخلاص أو الفلق أو النَّاس، وتقرأ تفسيرها، وتفهم معانيها، وتعرف مقصد السورة، ثمَّ إن غابَ عنك شيء أو لم تفهمه، تسأل من حولك من طلاب العلم، أو تفتح على أيِّ مقطعٍ مبثوث في الشبكة في تفسير أيِّ سورة، وهي كثيرةٌ ومتنوعة، ويمكنك أن تجد فيها كلَّ شيء، على أن يكون ذلك من خلال الموثوقين في هذا الشأن، من باب قول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فتأتي مثلًا لسورة النَّاس، وتدرك أنَّ مقصود السورة التَّحصُّن من الشرور الخفية، وأنَّ المقصود في سورة الفلق التَّحصُّن من الشرور الظاهرة، وأنَّ مقصود سورة الإخلاص إثباتُ تفردِ الله تعالى بالكمال..

وأنَّ سورة النَّاس تبيِّن لك أنَّ إبليس أخطر أعدائك، وأنَّ وسيلته الكبرى في إضلالك وغوايتك هي: (الوسوسة)، وهي الأحاديث الداخلية التي يفتح لك أبوابها وشهواتها، ويُمنيك من خلالها، ويعرضُ لك مشاهدها حتَّى تقع. وأنَّ سورة الفلق تبيِّن لك أعداءك الخارجيين، فتذكرك بأنَّ الليل ظرفٌ للشرور، وأنَّ السِّحْر والعين من أخطر ما يواجهك من عدوك الخارجي.. وهكذا..

وهذه المعاني لا تنشأ في ذهنك دفعةً واحدةً، وإنما تتشكَّل مع القراءة والسماع شيئًا فشيئًا، حتَّى تتمكَّن من عقلك، وتتأهَّل من خلالها إلى معرفة مراد الله تعالى في كلِّ سورةٍ من سور القرآن.

وثمَّة كتبٌ تعينك على هذه المعاني التدبرية؛ كتفسير السعدي رحمه الله، وكتاب: «القرآن تدبرٌ وعمل»،

وكتبي: «رحلة تدبــر»، و«علَّمني القرآن»، و«الخارطة القرآنية»، وكتبٌ أخرى يمكن أن تفتح لك آفاقًا كثيرة ومتنوعة في هذا الباب..

وقد قُلتُ لــك وما زلت أكرِّرُ: ليــس بالضرورة أن تقرأ في التفســير كلَّ يوم، أو تختم جزءًا، أو عددًا من التفاسير، بل المقصود في البدايات خاصةً أن تتأمل كلَّ يوم، أو حتَّى أسبوع، ســورةً من قصار جزء عمَّ، ولتبدأ مثلًا من آخر المصحف صاعدًا، ولا تنتقل لسورة أخرى حتَّى تضبط وتفهم تلك السورة، ومن الممكن أن تدير نقاشًا مع طلاب العلم من حولك، أو عبر وسائل التقنية المتاحة، عــن بعض مفاهيم تلك الســورة التي قرأتها، حتَّى تأتي منها على مــرادك الكبير في النهايات، ولئن تخرج في أسبوع بفقه وفهم معاني سورة الفاتحة، وفي الأسبوع الثاني ســورة النَّاس، وفي الثالث الفلق، وفي الرابع سورة الإخلاص؛ فقد خرجت بكلِّ شيء.

- خامسًا: فإن قُلت: أنا لا أحبُّ القراءة، أو لم آلفها بعد، أو قد أواجه صعوبات في الفهم والفقه من خلالها، وليس لدي القدر الكافي من وعي كلام أهل العلم من

خلالها، **فلا يمنع أن ترتبط بهذا المنهج الذي ذكرته لك من خلال المسموع والمرئي من الشبكة**، بشرط أن تُشاور أقرب طلاب العلم إليك، وأبصرهم بالعلم، وأقربهم صلةً به، حتَّى يدلَّك على العلماء الذين يفهمون مراد الله تعالى، فلا تقع ضحيةً لكثيرين في زمانك، يتكلَّم واحدهم في كلِّ فن ومجال، ويخبط في كلِّ طريق، ويأتي بالطوامِّ، فيتسلَّل إليك ممَّا تسمع بعض الانحرافات التي تظنها في بدايةِ عمرك سهلة، وقد تكون هي صانعة أكبر الانحرافات.

- **سادسًا: فإن عسر عليك الطريق، وتحتاج إلى مَنْ يفهمك ويجلس إليك، وتناقشه وتراجعه فيما ليس مفهومًا لديك، فيمكن أن تتكوَّن مجموعات تدبرية في مسجد الحي أو الأسرة**، أو غير ذلك، ويدير هذا النقاش طالبُ علمٍ متمكِّن، ويبدأ نقاش هذه المعاني سورةً سورةً، حتَّى تتكوَّن تلك التصورات في ذهنك، وتأتي على فهم كتاب الله تعالى.

ولا بد أن نعي أنَّ المشروع يحتاج إلى شيءٍ من الجهد والتعب والعناء في البداية، ولكن سيسهل مع

الاســـتمرار، وإدمان الدعاء، والافتقار إلى الله تعالى، وكثرة السؤال، حتَّى يُصبح شيئًا عاديًا، وغير مُكْلِفٍ في النهايات.

• **ومثـــل ذلـــك الحفظ**، فـــإنَّ له خطـــوات، وفيه تجارب، ومن لزم هذه المعاني أدرك مطلوبه ولو بعد سنين..

وأعظك ببعض الوصايا المهمة في هذا الباب، وهي:

ـ أن تدرك أولًا عظمـــة حفظك لكتاب الله تعالى، وأن تصنع مشـــاعرك تجاه هذا المعنـــى الكبير بكلِّ ما تملـــك، وأن تقرر أنـــه وجهتُك، ولا ســـبيل غير أفراحه في النهايات.

ـ ثمَّ لتســـلك جادة الطريق، وهي أن تسمع على شـــيخٍ متقن قبل كلِّ محفوظ، أو تســـمع للمحفوظ مرتين أو ثلاثًا من خلال قراءات العلماء المشهورين.

ـ ثمَّ تقلل المحفوظ، وتبدأ بثلاث آياتٍ فقط، فإن رأيت بأنَّ لديك فراغًا وعزيمـــة صادقة، فلا تزِدْ على نصفِ صفحة كلَّ يوم.



- ثمَّ لتعنى بكثـــرة تكرارها إلى ثلاثين أو أربعين مرة، وتقرأ بها في صلاتك فريضةً ونافلة، وتقوم بها جزءًا من ليلك إن اســتطعت إلى ذلك سبيلًا، وتقرأ بها في حِلك وترحالك، وفي ســفرك وإقامتك، وفي طريق عملك وعودتك، حتَّى تجري على لسانك كما تجــري الفاتحة لا فــرق، وفي الغد تحفــظ الجديد وتضمه إلى القديم، وتكـــرر القديم ثلاث مرات، ثم تعيد تكرار الجديد كالأمس، وهكذا في اليوم الثالث تُعيد الصفحة كاملةً مع الجديد.

- ولتكن أيــام حفظك خمســة أيام فحســب، ويومان لإدمان المراجعة لــكلِّ المحفوظ، وتكراره في كلِّ وقت.

- وإذا عَرض لــك في يوم ما عــارض، فإياك أن تُخضعَ حفظــك الجديد لظرف زمانــك، فلا تمنحه وقتــك المعتاد، ووصيتي لك بــأن تؤجِّل محفوظك الجديد، وركِّز على رأس المال كثيــرًا، فحفظُ رأس المال أثمنُ لك ألفَ مرة مــن جديدٍ يخضع لظروف عارضة، فيولــد ميتًا، فتبقى مــدى العمر تعالج ذلك الخطأ، ولا سبيل لك إليه.

ـ ولا يمنع إذا زاد حفظك مع الأيام أن تُفرِّغ يومًا ثالثًا من أسبوعك للمراجعة، ويبقى الحفظ على أربعة أيام فحسب، والمراجعة ثلاثة أيام.

ـ ولتكن عنايتــك بصلاح نفســك وصلتك بالله تعالــى، وحفظك لوقتــك أعظم ما لديــك في هذه الفترة، وأعدك أنك قادمٌ على ربيــع ما كنت تتصوَّر يومًا أن تعيش لحظةً منه، فضلًا عن أيام عمرك فيه.

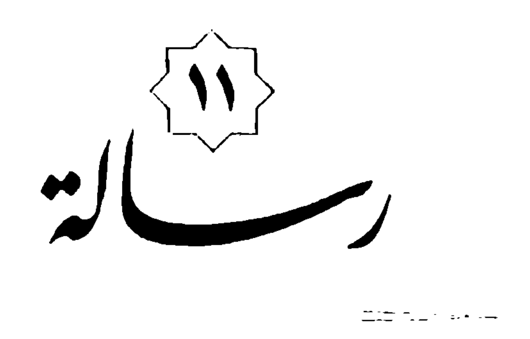
ـ **فإن قلــت لي**: لا ســبيل لي إلى هــذا التكرار الكثير، ألا يمكن أن أحفظ بأقل من ذلك؟.

فأقول لــك: أنت وجهــدك، ولا إشــكال، وإنما دللتك على الأصلح لك؛ لأن السُّنَّة في هذا القرآن أنه أشــدُّ تفلتًا من الإبل في عقلها، ولــك أن تراجع كلَّ مقطع عشــرين مرة أو عشــر مرات، وليكن معلومًا لديك أنه كلما عُنيت به كثيــرًا، كان في مقدورك أن تأتي على أمانيك منه أعجل ما يكون.

ـ **ونصيحتي لك ألا تســتطيل الطريق**، وأن تُدرك أنَّ هذه الأماني الكبار لا تأتــي من خلال محاولاتٍ عادية ومتفرقة، وإنما المســألة تحتاج إلى شيءٍ من

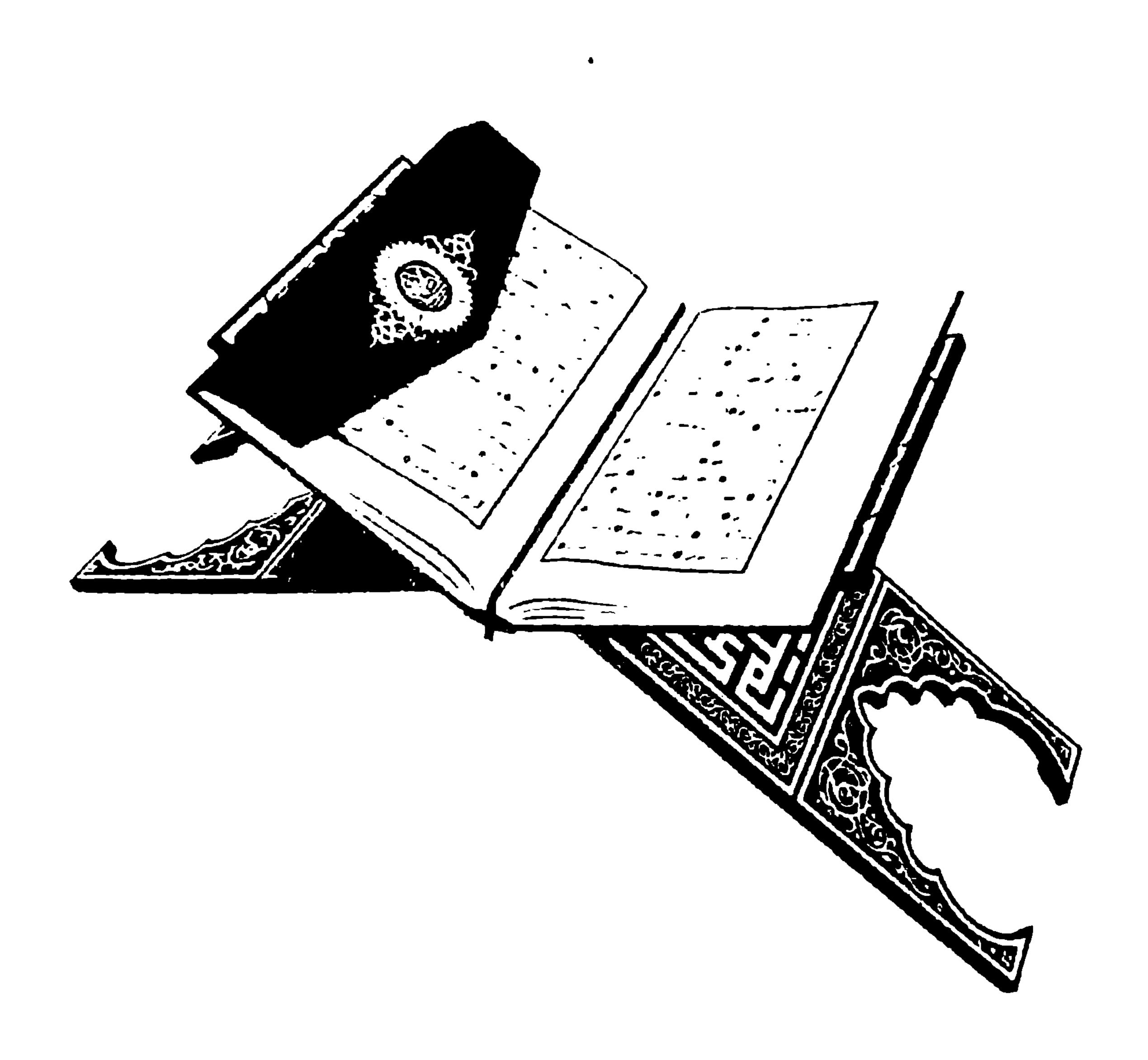
الجهد، والبذل والدعاء، والسؤال والإلحاح، والتجربة والتركيز على أقل القليل في البدايات، ولتعلم يقينًا أنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]..

ـ وإياك والعجلة، والحرص على رؤية الثمار، فإنَّ هذه من آفات طلبك، وقواطع الطريق عليك، فكن متأنِّيًا صادقًا عازمًا على تحقيق تلك الأماني الكبار، وستحين أجمل أيامك وأدهشها على الإطلاق.

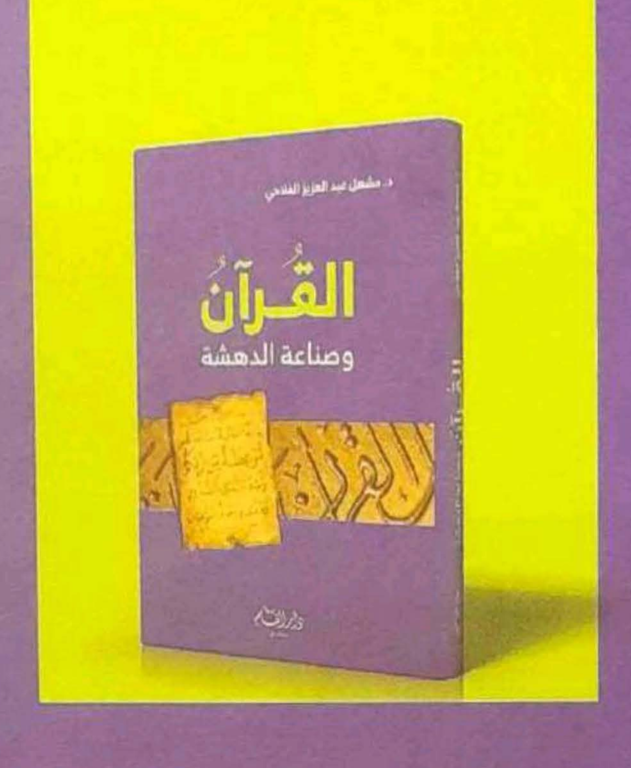


لو طهــرتْ قلوبنا، ما شــبعنا من كلامِ الله عَزَّ وَجَلَّ .

عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ



الفَهرس



✿ كثيرة هي المشاهد المدهشة في كتاب الله تعالى، غير أني بعثت لك في هذا الكتاب ما يُجري في مشاعرك الحياة، فسردت لك كل الآيات والأحاديث التي تدلك على كرامات هذا الكتاب وأثره في حياتك ودوره في صناعة مستقبلك، ودعمت ذلك بقصص ثابتة لأثره في شفاء الأمراض، ودوره في إسلام الكفار، وقدرته على صناعة التغيير، وإجابته على أكثر الأسئلة إلحاحاً في حياتك، وبيان الطريق لتأهيل نفسك وأسرتك، وبناء الحضارة الكبرى في واقع الحياة.

✿ وأحسب أنك ستبدأ معه رحلة التغيير الكبرى في مستقبل الأيام.

المؤلف

Email: kalam-sy@hotmail.com



تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

الدار الشامية ـ بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزَّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدَّة ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

